IRCICA

مجلة علمية محكمة تعنى بالتاريخ والحضارة الإسلامية

المجلد IV ◉ العدد 7 ◉ ربيع 2016

مجلة إرسيكا

المجلد IV، العدد 7
ربيع 2016
ISSN 2148-2772

منظمة التعاون الإسلامي
مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية

إرسيكا

رئيس التحرير

د. خالد أرن
المدير العام لإرسيكا

تحرير

أ. د. صادق أوناي، إرسيكا
أ. د. فاضل بيات، إرسيكا

هيئة التحرير

الرئيس: د. خالد أرن، المدير العام لإرسيكا

أ. د. آلب أرسلان آجيق كنج، جامعة يلديز التقنية
أ. د. أيمن فؤاد سيد، جامعة الأزهر
أ. د. آلب أرسلان آجيق كنج، جامعة يلديز التقنية
أ. د. عامر باسيج، إرسيكا
أ. د. عزمي أوزجان، جامعة ساكاريا
فيصل بن عيسى، إرسيكا
أ. د. فاضل بيات، إرسيكا
أ. د. خرّم قادر، المدير السابق لـNIHCR باكستان
أ. د. محمد عاكف آيدين، جامعة مدينبول
أ. د. محمد إبشيرلي، جامعة الفاتح
أ. د. مرتضى بدر، جامعة استانبول
د. نزيه معروف، إرسيكا
أ. د. نجاة صائم خليل، إرسيكا
أ. د. رمضان ششن، إرسيكا
أ. د. صادق أوناي، إرسيكا
أ. د. صبحي ساعتجي، جامعة معمار سنان
زينب دروقا، إرسيكا

هيئة المستشارين الدولية

أ. د. عبد الرحيم أبو حسين، الجامعة الأمريكية في بيروت
أ. د. عبد الرحيم بنحاده، جامعة محمد الخامس بالرباط
أ. د. عبد الرحمن المودن، جامعة محمد الخامس بالرباط
أ. د. بهيجة زلاطار، معهد الاستشراق في سراييفو
أ. د. جنكيز طومار، جامعة مرمرة
أ. د. فيصل الكندري، جامعة الكويت
أ. د. فريدون أمه جن، جامعة استانبول 29 مايس
أ. د. حمد بن محمد الضوياني، رئيس هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية بسلطنة عمان
أ. د. هيث وارد لوري، جامعة برينيستون
أ. د. كلاوس كريسر، جامعة مونيخ
أ. د. ماجدة مخلوف، جامعة عين شمس
أ. د. ميهاي ماكسيم، جامعة بوخارست
أ. د. محمد عدنان البخيت، الجامعة الأردنية
أ. د. محمد باغريه، جامعة طهران
محمد المرّ، هيئة دبي للثقافة والفنون
أ. د. مروريد أبو سعيد توفا، أكاديمية العلوم في قزخستان
أ. د. مصطفى فايدا، جامعة مرمرة
أ. د. رفائيل خكيموف، أكاديمية العلوم في تتارستان
أ. د. ريتشارد بوليت، جامعة كولومبيا
د. سعد بن عبد العزيز الراشد، عضو في مجلس إدارة إرسيكا
أ. د. سلجوق ملايم، جامعة مرمرة
أ. د. طوفان بوزبينار، جامعة استانبول شهير
د. وجيه كوثراني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت
أ. د. ويليام شيا، جامعة بادوا

معلومات عامة

مجلة إرسيكا مجلة علمية محكّمة متعددة التخصصات يُصْدِرُها مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية (إرسيكا)، الجهاز الثقافي المتفرع عن منظمة التعاون الإسلامي، مرتين في السنة (في الخريف والربيع). وتنشر المجلة مقالاتٍ علمية باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، وهي اللغات الرسمية للمركز.

يوجد مكتب تحرير مجلة إرسيكا في مقرّ إرسيكا باستانبول.

وتُعنى مجلة إرسيكا بجميع جوانب الحضارة الإسلامية من تاريخ الثقافات، والفنون، والعلوم، والفلسفة، والأدب، والحرف التقليدية، وعلم الآثار وهلم جرا. وتهدف إلى المحافظة على تراث الحضارة الإسلامية المادي وغير المادي (التراث المكتوب والمعماري والثقافي والفني).

وترحّب مجلة إرسيكا بالبحوث والمقالات الأصيلة التي لم تُنشر في وقتٍ سابقٍ والتي تتناول جوانب الحضارة الإسلامية في مختلف مناطق العالم الإسلامي وخارجه، من البلقان والقوقاز وآسيا الوسطى والشرق الأوسط وشمال أفريقيا وأفريقيا السوداء وآسيا الجنوبية وجنوب شرق آسيا. ومن المؤمّل أن تلبي المقالات العلمية احتياجات الباحثين المختصين في مجالات التاريخ والدراسات الثقافية وعلم الاجتماع والعمارة والعلاقات الدولية والأنثروبولوجيا. وتنظر مجلة إرسيكا في جميع البحوث ولكن بشرط أنها لم تُقدَّم إلا لمجلة إرسيكا، وأنها لم تُنشر من قبل، ولا هي قيد النظر للنشر أو الطبع في مكان آخر.

Copyright@2016 by IRCICA

التصميم
محمد نور آنبارلي

التجليد والطباعة
Karist Baskı Çözümleri

شروط النشر

ينبغي أن تكون البحوث المقدّمة إلى مجلة إرسيكا أصيلة وأن لا تكون قيد النظر للنشر في مجلة أخرى وقت تقديمها. وتخضع البحوث المقدّمة إلى مجلة إرسيكا للنشر لمراجعة الزملاء.

وتُرسَل البحوث إلى عنوان إرسيكا الإلكتروني (ircica@ircica.org) على شكل ملفات مرفقة (ms Word). وعموما ينبغي ألاّ يتجاوز طولها 10.000 كلمة، وألاّ يقل عن 4.000 كلمة، دون الحواشي.

وينبغي أن تُستهل البحوث بملخّص لا يتجاوز 300 كلمة، ومصحوب بخمس (5) كلمات مفتاحية دالة على مضمون البحث.

وينبغي أيضا إلحاق قائمة المصادر المستخدمة في البحث بنهاية المقالة. وينبغي كتابة ألقاب الباحثين قبل الأسماء.

وينبغي للباحثين أن يرفقوا ملفا مستقلا عن خبراتهم الأكاديمية والمهنية الحالية والأخيرة وأبحاثهم المنشورة بالمقالات المقدّمة. وينبغي ألا تتجاوز السيرة الذاتية الموجزة المقدّمة مع المقالات 300 كلمة.

ومن شروط النشر أن يتنازل الباحثون عن حقوق نشر مقالاتهم، بما في ذلك الملخصات، لمجلة إرسيكا.

لا تتحمل هيئة تحرير المجلة أو ناشرها إرسيكا مسؤولية الآراء والأفكار التي يعبَّر عنها أصحابها في مجلة إرسيكا. إن السياسة التحريرية لمجلة إرسيكا هي تعزيز النقاش الأكاديمي الحيّ ولكن مع تجنب الجدال غير اللازم. ولهذا فليس من الضروري أن توافق آراءُ الباحثين آراءَ الناشر.

لا يجوز استنساخ المجلة أو أيِّ جزءٍ منها أو توزيعها بأي شكلٍ من الأشكال وبأيِّ وسيلةٍ كانت، ولا يجوز تخزينها في قاعدة بياناتٍ أو نظام لاسترجاع المعلومات، دون سابق إذنٍ من الناشر إرسيكا. ويمكن طلب إذنٍ رسميٍّ من دائرة الأبحاث والنشر في إرسيكا للاستنساخ أو التوزيع.

للتواصل مع مكتب التحرير

تُرسل جميع الأعمال والمراسلات التحريرية المتعلقة بالمجلة إلى العنوان الآتي:

IRCICA Journal, Alemdar Cd., No: 15, Bâbıâli Girişi,

34110 Cağaloğlu, İstanbul, Türkiye
e-Mail: ircica@ircica.org
Tel: +90 212 402 00 00 Fax: +90 212 258 43 65
www.ircica.org

في هذا العـــــدد

مقالات باللغة العربية

١٣

إسهام السلطان سليمان القانوني في التطور العمراني الجديد للقدس 1520م- 1566م

أ.م. صالح علي الشورة

جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمّان، الأردن

Contribution of Sultan Suleiman the Lawgiver in the new urban development of Al Quds (1520-1566 AD)

Saleh Ali al Shoura, Dr.

The World Islamic Sciences and Education University, Amman, Jordan

٣٣

الخانات العثمانية في لبنان في القرن التاسع عشر: محطة تواصل اقتصادي واجتماعي مميّز

د. عبد الله سعيد

الجامعة اللبنانية، بيروت، لبنان

Ottoman Khans in Lebanon in the 19th century: an economic and social interaction station par excellence

Abdullah Saeed, Dr.

Lebanese University, Beirut, Lebanon

٥٧

مظاهر الحضارة الإسلامية في مملكة كانم: حوض بحيرة تشاد

د. ابن عمر عمر عبيدالله

جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، السودان

Aspects of the Islamic civilization in the Kingdom of Kanem: Lake Chad Basin

Ibn Omar Omar Obaidullah, Dr.

International University of Africa, Khartoum, Sudan

مقالات باللغة الإنجليزية

13

State of Awadh, A Study of Splendid Culture and Pluralist Society

Naumana Kiran, Dr.

University of the Punjab, Lahore, Punjab, Pakistan

دولة أوده: دراسة حول ثقافة رائعة ومجتمع تعدّدي

د. نعمان كيران

جامعة البنجاب في لاهور، البنجاب، باكستان

39

The Struggle to Deliver Utilitarian Education to Muslims in East Africa since 1900

Abdu B. K. Kasozi, Prof.

النضال من أجل تقديم تعليم نافع للمسلمين في شرق أفريقيا منذ عام 1900

أ.د. عبدو كاسوزي

53

Pilgrimage Practice in Classical Era in Bosnia

Aladin Husić, Dr.

University of Sarajevo, Sarajevo, Bosnia and Herzegovina

الحج في العصر الكلاسيكي في البوسنة

د. علاء الدين هوسيج

جامعة سراييفو، سراييفو، البوسنة والهرسك

افتتاحية

يسرّنا أن نقدّم للمجتمع الأكاديمي والعلمي العدد السابع لمجلة إرسيكا العلمية المحكّمة التي تُعنى بالتاريخ والحضارة الإسلامية. وكما هو الحال دائما، يحتوي هذا العدد على نتائج آخر الأبحاث العلمية في مختلف جوانب التاريخ الإسلامي، والحضارة، والعمارة، والفنون والثقافة. وتعكس المقالات باللغتين العربية والإنجليزية الواردة في هذا المجلد من مجلة إرسيكا النطاقَ الجغرافيَّ الواسعَ للمجلة والذي يشمل البلقان، والشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وجنوب آسيا وجنوب شرقها ووسطها، وغرب أفريقيا وشرقها.

يضمّ هذا العدد ستّ مقالاتٍ بديعة مقدّمة لعناية الباحثين في مجال دراسة التاريخ الإسلامي والحضارة، كتبها مؤلّفون بارزون في مجالات اختصاصهم، ثلاثة منها بالعربية وثلاثة بالإنجليزية. ويعكس عمقُ المقالات المختارة لهذا العدد من المجلة الالتزام القويّ لمركزنا بالمساهمة ببحوث من الدرجة الأولى في نطاق المهام المنوطة به.

أعدّ المقالة الأولى من قسم المقالات باللغة العربية والتي تحمل عنوان «إسهام السلطان سليمان القانوني في التطور العمراني الجديد للقدس (1520-1566م)»، الدكتور صالح علي الشورة من جامعة العلوم الإسلامية العالمية في عمّان، بالأردن. وتبحث المقالة في بناء أسوار المدينة وقلعة القدس كنظام دفاعي لحماية المدينة في عهد السلطان سليمان القانوني وتهتم بخاصّة ببناء قنوات المياه والأسبلة (النوافير) وبترميمها في القدس خلال نفس الحقبة.

وكتب المقالة الثانية التي تحمل عنوان «الخانات العثمانية في لبنان في القرن التاسع عشر: محطة تواصل اقتصادي واجتماعي مميّز»، الدكتور عبد الله سعيد من

الجامعة اللبنانية في بيروت، لبنان. وتبحث المقالة في الخانات العثمانية في لبنان في القرن التاسع عشر باعتبارها نوعًا من أنواع العمائر التجارية التي كان يقصدها التجار للاستراحة وبيع ما يحملونه من سلع. وبتقديمه وصفًا لأهم الخانات العثمانية في المدن الكبرى فإن الدكتور سعيد يبيّن وظائفها ونوع الخدمات التي كانت تقدّمها للتجار. ويختتم الدكتور سعيد مقاله بتوضيح كيف أن هذه الخانات أصبحت اليوم تعمل كمنازل لإيواء اللاجئين الفلسطينيين.

وأعدّ المقالة الثالثة التي تحمل عنوان «مظاهر الحضارة الإسلامية في مملكة كانم: حوض بحيرة تشاد»، الدكتور ابن عمر عبيدالله من جامعة إفريقيا العالمية في الخرطوم، بالسودان. وتبحث المقالة في دخول الإسلام إلى منطقة بحيرة تشاد التي عُرفت عند المؤرخين والجغرافيين العرب في القرون الوسطى باسم السودان الأوسط، وفي قيام مملكة كانم الإسلامية في هذه المنطقة ونشأة الثقافة والحضارة الإسلامية فيها.

كتب المقالةَ الأولى من قسم المقالات باللغة الإنجليزية والتي تحمل عنوان «دولة أوده: دراسة حول ثقافة رائعة ومجتمع تعدّدي»، الدكتور نعمان كيران من جامعة البنجاب في لاهور، باكستان. وتبيّنُ المقالة الازدهارَ الثقافيَّ الكبير والتنوع الذي شهدته دولة أوده في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر في الهند. وفي هذا الصدد، تبحث المقالة في النظام الإداري الداخلي، والعلاقات بين الدول، والإنجازات الثقافية والمعمارية الأساسية، وكذلك في مكانة المرأة الملكية التي كان لها نفوذ عظيم في أمور الدولة بخلاف الكثير من الدول الأخرى في ذلك الوقت في الهند.

وكتب المقالة الثانية التي تحمل عنوان «النضال من أجل تقديم تعليم نافع للمسلمين في شرق أفريقيا منذ عام 1900»، الأستاذ الدكتور عبدو كاسوزي الذي أوضح فيها أن المسلمين في شرق أفريقيا كانوا لمدة طويلة إبان الاستعمار وبعده أقلّ الناس تدريبًا من حيث مهارات الحياة العملية، وذلك بسبب نقص التعليم النافع. فرغم التعليم الذي تلقّوه في المدارس الدينية الإسلامية إلاّ أنهم كانوا يفتقرون

إلى المهارات المتخصّصة للمشاركة في الاتجاه السائد لِمِهَنِ مجتمعهم. وكانت المهارات اللازمة للمشاركة في مجتمع شرق أفريقيا الاستعماري الناشئ تُكتسَبُ عن طريق صفوة من المدارس التي كانت مناهجها دينية علمانية ومسيحية والتي عزف عنها المسلمون خوفا من اعتناق المسيحية ففاتهم بذلك تحصيل هذه المهارات. وتستقصي المقالة هذا الانقسام بالتفصيل وتُبرزه لكونه سببًا في تدنّي أوضاع المسلمين في مجتمع شرق إفريقيا وتقدّم خطة عمل جديدة لتنمية المهارات المطلوبة في المجتمع الإسلامي.

وكتب المقالة الثالثة التي تحمل عنوان «الحج في العصر الكلاسيكي من الحكم العثماني في البوسنة»، وهي المقالة الأخيرة باللغة الإنجليزية، الدكتور علاء الدين هوسيج من جامعة سراييفو، في سراييفو، بالبوسنة والهرسك. وتبحث المقالة في العلاقات المتعددة الأوجه بين البوسنة والعالم الإسلامي مع إيلاء الحجّ اهتمامًا خاصًّا. وفي هذا الصدد، بيّن المؤلف أن كلاّ من البوسنة وألبانيا كانتا ولايتين تابعتين للإمبراطورية العثمانية حيث كان للإسلام الأثرُ الشديد؛ إلاّ أن تعلّق البوسنة بالحضارة الإسلامية كان أقوى بكثير بالمقارنة مع تعلّق الولايات والمناطق المجاورة الأخرى في البلقان بها. كما أوضح أن إقبال الحشود من الناس على اعتناق الإسلام في البوسنة قد سمح للمنطقة بأن تتميّز عن ضواحيها وأن تقدّم عددا أكبر من الحجّاج، ممّا يدلّ على علاقتها الحميمة مع مكّة المكرمة والمدينة المنورة.

نأمل أن ينال هذا العدد من مجلة إرسيكا إعجاب الباحثين من جميع أنحاء العالم وأن يسترعي اهتمامهم ويشجّعهم على المزيد من البحوث في مختلف جوانب التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية. ونود أن ننتهز هذه الفرصة لنشكر جميع المؤلّفين المحترمين على مقالاتهم القيّمة..

الدكتور خليل أره

المدير العام لإرسيكا

إسهام السلطان سليمان القانوني في التطور العمراني الجديد للقدس 1520م – 1566م

صالح علي الشورة*

مقدمة

تكاد الكلمات تلوذ وراء الصمت في محراب قدس الأقداس، فتنحني خجلا أمام هذا الطود العظيم الحزين، فهناك في القدس تراب اختلط بدم الفاتحين وانتشر، فملأ المكان والزمان ليعانق صهيل الخيول، وفي القدس صوامعٌ وبِيَعٌ وصلوات، وإليها ينتهي سِفْر الصعود، ومنها تبدأ آية المعراج. كيف لا: والقدس هي بوابة أهل الأرض إلى السماء. لقد حظيت مدينة القدس، على مر العصور باهتمام، الأباطرة والملوك والخلفاء والسلاطين الفاتحين منهم والغاصبين، لما لها من أهمية في ذاكرة أتباع الديانات السماوية الثلاث، وبما أن الدين هو عطر السياسة، والعمران هو من عظمة السلطان، اهتم هؤلاء بالمرافق الدينية الموجودة داخل المدينة أيما اهتمام، تبعا لما دعته الحاجة أو ما جرت عليه العادة فيما بينهم، ويسلط البحث الضوء على أهم الإصلاحات والترميمات التي جرت في عهد السلطان سليمان القانوني لمدينة القدس أثناء فترة حكمه.

السلطان سليمان القانوني

هو السلطان سليمان بن سليم الأول، وترتيبه العاشر بين سلاطين الدولة العثمانية تولى الحكم سنة ست وعشرين وتسعمائة هجريا حتى وافاه الأجل سنة خمس وسبعين وتسعمائة هجريا.[1]

---

* أستاذ مشارك. جامعة العلوم الإسلامية العالمية، عمّان، الأردن

[1] البكري، زين الدين، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، دار البشائر، جدة، ص104-105.

كان رؤوفا مشفقا على الرعية معطاءاً، مستقيم الدين، صادق الاعتقاد من جهة وجسورا مقداما فاتحا من جهة أخرى، فقد بلغت فتوحاته قلب أوروبا حتى لقبه الأوروبيون ب «سليمان العظيم»، ولكن أهم لقب، التصق به هو «القانوني»، وذلك لأنه اكتملت في عهده كل قوانين الدولة، وعمل بالقوانين بما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية، ووقف في وجه الإلحاد وحارب الملحدين.[2]

أولى السلطان سليمان القانوني كل الرعاية لمكة والمدينة والقدس عملا بالحديث الشريف «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»، وكان لمدينة القدس رعاية خاصة من إجراء لإصلاحات وترميمات داخل المدينة دعت إليها أمور عدة أهمها:

اتساع المدينة وزيادة عدد السكان، حيث تفيد إحصاءات دافعي الضرائب بأن فترة حكم السلطان شهدت نمواً متزايدا بشكل مضطرد في عدد السكان، فبينما كان عددهم لا يتجاوز 4 ألاف نسمة عام 932هـ/ 1525م ارتفع العدد إلى حوالي 12 ألف نسمة عام 916هـ/ 1553م، إن ارتفاع عدد السكان إلى ثلاثة أضعاف خلال ثلاثين عاماً يعد مؤشراً على الجاذبية الجديدة للمدينة والتي نتجت بشكل رئيس عن برنامج تطوير واسع النطاق الذي أمر به السلطان سليمان، وقد تمت عملية التحويل مراعاة لإسلوب الفن المعماري الإسلامي وبخاصة المدرسة الحلبية في أوائل القرن الخامس عشر للميلاد المتمثل في الأفاريز المسننة التي تستخدم في زخرفة الأبواب والأقواس والنوافذ بالإضافة إلى الأقواس والقباب التي تميز بها هذا الفن، وكما ورد على لسان أوليا جلبي فإن السلطان سليمان هو بحق مجدد للمدينة.[3]

دعت الحاجة لبناء سور جديد للمدينة بدلا من السور الذي تهدم جراء الحروب وتقلبات الطقس سنة 616ه،[4] وضرورة المحافظة على الأماكن المقدسة في المدينة، فقد تم ترميم قبة الصخرة المشرفة وتطعيمها بالقاشاني، كما تم ترميم باقي أماكن الحرم القدسي الشريف، وإنشاء أسبلة المياه وحمامي السلطان». رمم

---

[2] المصدر نفسه، ص104-105.

[3] بركات، بشير، القدس الشريف في العهد العثماني، دار الفكر، أبو ديس، 2002، ص 2- 21.

[4] المقريزي، أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، وزارة الثقافة، القاهرة، 1922، ج1 ص 321

السلطان سليمان خان القدس وحصنها وحدد بناء سورها القائم حتى اليوم وفتح له أبوابا كبيرة وبنى المدارس وشيد المساجد ورمم ما كان قد اندثر منها»[5]

أما السبب المباشر للعناية بالقدس من قبل السلطان سليمان كما يروي الحكاية الرّحالة أوليا جلبي الذي زار القدس سنة 1082هـ/ 1672مبأن السلطان سليمان رأى في المنام النبي محمد صلى الله عليه وسلم في ليلة من ليالي رمضان وأمره فيما يتعلق بالقدس بأن يحصن قلعتها ليصد الكافرين عنها، ويزيين حرمها بحوض للماء، وأن ينفق على فقرائها، وأن يزين صخرة الله، ويعيد بناء مدينة القدس»[6] وفي اليوم التالي لحلم السلطان أرسل من فوره صرة إلى القدس، وأمر كبير مهندسيه خوجا سنان للإشراف على إعادة بناء مدينة القدس. ونقل مصطفى باشا من ولاية مصر إلى ولاية الشام ليشرف على ترميم القدس، فقام الأخير بحشد جمع غفير من البنائين والمهندسين والنحاتين في القاهرة ودمشق وحلب وأرسلهم إلى القدس.[7] وكان من أهم الترميمات التي قام بها السلطان سليمان القانوني في القدس هي:

بناء السور

اتسعت مدينة القدس إبان حكم السلطان سليمان، فبعد أن كانت القدس مدينة صغيرة مربعة الشكل لا تتجاوز مساحتها المسورة: سبعمائة ألف متر مربع، اتسعت لتضم حارات امتدت خارج السور، وتخوف الناس من تجدد الهجمات الصليبية على مدينة، مما حدا بالصدر الأعظم لإصدار قرار إعادة بناء السور من الجهة الغربية والجنوبية، وقد أُوكل النظر على بناء السور للأمير «بيرام جاويش» الناظر الشرعي على بناء السور، فلجأ إلى القاهرة للتعاقد مع أصحاب الخبرة لبناء السور، فتم الاتفاق على ذلك لقاء عشرة آلاف قطعة عثمانية [8] وبدأت

---

[5] المصدر نفسه، ص -321 322.

[6] بركات، بشير، القدس الشريف، ص -2 21.

[7] المرجع نفسه، ص -2 21.

[8] سجل محكمة القدس الشرعية، رقم12، ص 1106

التبرعات تنهال من شتى أرجاء فلسطين في شهر رجب من عام 943ه لتستمر حتى شهر ذي القعدة من عام 944ه/ 1537م[9]. يمكن تحديد خطوات بناء السور البالغ طوله أربعة كيلو متر والذي يشمل سور الحرم الجنوبي وزاويته الجنوبية الشرقية، وسور القلعة في الجهة الغربية بناءا على النقوش الثلاثة عشر المنتشرة على جوانب السور، حيث بدأ البناء في الجزء الشمالي الغربي سنة 944هـ كما تشير ثلاثة نقوش كتابية على باب العمود، وانتهى بناء السور مع اكتمال بناء الجزء الجنوبي سنة 947هـ/ 1540م ومن هذه النقوش[10]:(أمر بإنشاء هذا السور المبارك مولانا السلطان سليمان بن سلطان سليم خان بتاريخ سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة) وعلى جهة أخرى (أمر ببناء هذا السور المبارك مولانا السلطان سليمان بن سليم خلد الله ملكه بتاريخ شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين وتسعمائة)[11]

بلغ ارتفاع سور القدس حوالي 12،5-13،5م، بينما بلغ طول الناحية الشمالية منه ما يقارب 1300 م، ومن الجهة الشرقية 920 م، أما من الناحية الجنوبية فقد كان 1080 م، ومن جهته الغربية وصل طوله 695 م[12]. تم الانتهاء من بناء السور سنة 947 ه، وكان محمد الجلبي هو المشرف والأمين على بناء السور والمتصرف بالأموال السلطانية التي رصدت لأعمال البناء[13]. بني وأعيد ترميم خمسة وثلاثون برجا للمراقبة في السور، لكن بعض الأبراج لم يكتمل بناؤه، ويعد برج اللقلق أجملها، ويعتقد البعض أن التسمية جاءت من أحد القادة الصليبيين، واسمه "غوطفرد" الذي اقتحم السور سنة1099م، وكان يتخذ من اللقلق رمزا له[14] وتبرز هذه الأبراج من السور لكي تعطي أفضل مجال للرؤية للحراس، وذلك للمراقبة وللدفاع عنه، ويكون علو هذه الأبراج ثلاث طبقات، استخدمت الطبقة السفلى

---

[9] سجل محكمة القدس الشرعية، رقم 12 ص 486-487

[10] بركات، بشير، القدس الشريف، ص 2- 21.

[11] العارف، المفصل في تاريخ القدس، المؤسسة العربية، بيروت، 2005، ص 431.

[12] العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص 432.

[13] جاويش، سليمان، التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، المكتبة العمومية، بيروت، 1887، ج3، ص 137-138. وسجل شرعي 5 و78-79

[14] عن لوحة تعريفية علقت على جدار برج اللقلق.

منها كمخازن وإسطبلات للخيل، وجعلت الوسطى مسكنا للحراس، أما الطبقة العليا فاستخدمت للحراسة.[15]

ظلت مدينة القدس طوال ثلاثة قرون تغلق أبوابها بعد الغروب، والذي يتأخر عن هذا الموعد فعليه أن يبيت ليلته خارج أسوار المدينة.[16]

قلعة القدس

كان هم السلطان سليمان هو إعادة تفعيل النظام الدفاعي في المدينة، وهو ما وجده في تجديد بناء القلعة الخربة الواقعة في الجهة الجنوبية منها، فتم ترميمها سنة 938هـ/ 1531م. وأضيف ممر شرقي للقلعة حتى وقفت القلعة شامخة كما كانت.[17] وقد جاءت فكرة ترميم القلعة تزامنا مع مصادرة أموال رهبان دير صهيون بعد أن تم حجزهم داخل القلعة بأمر من الباب العالي، وقد أحصيت الأموال المصادرة فبلغت 1292 دينارا قبرصيا ذهبا و 1102 إنكرسيا و 190 أشرفيا، فسلم الأمير مصطفى بك والي الشام 190 دينارا قبرصيا ذهبيا إلى محمد الجلبي للمباشرة بأعمال الترميم[18]. كان بناء القلعة يحاكي القلاع التي بنيت في عهد الدولة المملوكية خاصة السائدة في دمشق، وإن دل هذا على شيء إنما يدل على أن السلطان سليمان قد سيطر على ميراث المماليك من خلال هذا الترميم، ويتضح هذا الأمر في النقوش التي وجدت على القلعة وهي تشابه المصطلحات المملوكية كمثل "السلطان سليمان عز نصره، ومولانا السلطان الملك المظفر أبو البصر سليمان شاه»[19]

تم نقش اسم السلطان سليمان على البوابة الجديدة ليبين الهدف من بناء القلعة ألا وهو توفير الأمن لأهالي القدس ووجد نقش آخر يشير إلى اسم السلطان سليمان

---

[15] عن لوحة تعريفية علقت على أحد أبراج سور القدس.

[16] العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، ص 303.

[17] بركات، بشير، القدس الشريف، ص -2 21.

[18] سجل محكمة القدس الشرعية، رقم 6 ص 2158

[19] بركات، بشير، القدس الشريف، ص -2 21.

كصاحب فضل في إعادة بناء القلعة جاء فيه: "أمر بترميم الحصنة الشريفة السلطان الأعظم والخاقان المعظم، مالك رقاب الأمم.... السلطان ابن عثمان سليمان الثاني" ويرجح صاحب كتاب المفصل في تاريخ القدس، أن المقصود بسليمان الثاني هو سليمان القانوني نفسه وهذا من باب التواضع على اعتبار أن سليمان الأول هو سليمان بن داود عليه السلام[20]

قبة الصخرة المشرفة

أجريت ترميمات عدة على القبة المشرفة سنة 955-969ه، وقد كتب عبدا لله التبريزي نقش الترميم جاء فيه « جدد بحمده قبة الله من الصخرة ببيته المقدس..... في ظلال السلطان الأعظم أبي الفتوحات سليمان خان.....»[21]. وقد تم تلبيس القبة المشرفة بالقاشاني الذي جيء به من الأستانة سنة 955ه، وقد اشتملت أول دفعة على 3454 لوحا قاشانيّا منها 1747 لوحا ملونا تسلمها فتح الدين بن ميرك جان الناظر الشرعي على تلبيس القبة بالقاشاني[22]، ثم أُتي بألواح القاشاني تباعا، تم تخزينها في إحدى غرف القبة النحوية[23].

ورد في السجلات الشرعية أن مجموع ما تم صرفه على أعمال عمارة القاشاني الجديد لمثمن القبة الخارجي بلغ 25367 دينارا ذهبيا، كما وجد نقش في القبة المشرفة يؤرخ لعملية الإعمار هذه كتب عليه: « ..... أمر بتجديد هذا الكاشاني .... مولانا السلطان سليمان بن سليم .... في تسعة وستين وتسعماية.»[24] استمرت عملية البناء والترميم إلى ما بعد سنة 969ه، فقد أمر السلطان سليمان القانوني بتجديد ثلاثة من أبواب القبة المشرفة، وقد تم تصفيحها بالنحاس الذي تم إحضاره من عاصمة الخلافة آنذاك، ومن عدة قرى من أعمال مدينة الرملة والقدس سنة 971 ه[25].

---

[20] العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، ص 305.

[21] المصدر نفسه، ص 265.

[22] سجل محكمة القدس الشرعية رقم 21، ص 1604

[23] المصدر نفسه، رقم 23 ص 223.

[24] المصدر نفسه رقم 23 ص 2090.

[25] سجل محكمة القدس الشرعية رقم 21 ص 1601، 1788، العارف، عارف، تاريخ قبة الصخرة المشرفة

قبة السلسلة

إحدى قباب المسجد الأقصى المبارك، تقع على بعد ثلاثة أمتار من الباب الشرقي لقبّة الصخرة المشرفة، في قلب صحن المسجد الأقصى. بنيت بأمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قبل قبة الصخرة، ويرجح البعض أنها بنيت كنموذج لبناء قبة الصخرة بين عامي 65–68هـ/685–688م، وقد اتخذها الخليفة سليمان بن عبد الملك مجلسا له ينظر فيها أمور الرعية، كما استخدمت فيما بعد مقرا للعلم والعلماء للتدريس والسماع، واستخدمت أيضاً للصّلاة والتعبّد.أما تسميتها، فيقال إنها أخذته من سلسلة حديدية كانت تتدلى في وسطها، لكن لا دليل على ذلك، وللقبة أحد عشر ضلعا ومحراب واحد في جنوبها جهة القبلة، وتستند هذه الأضلاع إلى أحد عشر عموداً رخاميّاً، وفي وسطها ستة أعمدة أخرى تحمل رقبة مغلقة سداسيّة، تعلوها القبة.[26]

تم استبدال فسيفساء قبة السلسلة بالقاشاني، وأضيف إلى البناء القديم محراب زين بالقاشاني أيضا[27] سنة 969ه، وقد وضع فخر الدين بن فضل الله معلم كاشي (قاشاني) قبة السلسلة في إحدى زوايا المسجد الأقصى 1560 لوحا قاشانيا يبلغ ثمن كل لوح منها ثلاث قطع فضية، و330 لوحا آخر، قيمة كل لوح منها ثلاثون قطعة فضية.[28] كما أعيد تجديد «قنطرة ميزان» وهو الاسم الذي أطلق على القنطرة الغربية الشمالية في صحن قبة الصخرة في أواخر ولاية السلطان سليمان سنة 974ه.

خندق القدس

عمد العثمانيون إلى حفر الخنادق تحصينا لمدينة القدس نظرا لأهميتها[29]، و تم

والمسجد الأقصى المبارك ولمحة عن تاريخ القدس، مكتبة الأندلس، القدس، 1955، ص 90.

[26] مجير الدين، العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، د.ن، د.م، د.ت، ج2، ص 18- 19.

[27] العارف، تاريخ قبة الصخرة، ص 35، 92.

[28] سجل محكمة القدس الشرعية رقم 36 ص 1359.

[29] مجير الدين، العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص 383

إحضار معداتحفر من إستانبول سنة 963ه إلى قلعة القدس، وأشرف فروخ بك، أمير لواء القدس، بنفسه على أعمال حفر خندقٍ لسور القدس، وأنجزت أعمال الحفر في غضون عام من مباشرة عملية الحفر[30]، وأظهرت حجة شرعية أنبيرم (بك) جاويش قام باستئجار الخندق فور الانتهاء من أعمال الحفر.[31]

باب الأسباط

وهو الباب الذي يفتح على الحرم القدسي الشريف من الجهة الشمالية الشرقية، ويقع في سور القدس الشرقي وهو الباب الوحيد المفتوح في هذا الجدار، تم ترميمه سنة 945ه/ 1538م، واستعملت في إعادة بنائه حجارة خان الظاهر بيبرس بعد أن قام البناؤون بهدمه سنة 943ه/ 1536، كما وجد على جانبي الباب نقش لأسدين نافرين أحضرا من بقايا حجارة خان الظاهر بيبرس[32]، وهناك نقشان على الباب أحدهما باللغة العربية والآخر بالتركية يفيدان بأن السلطان سليمان القانوني أمر بإعادة بناء الباب في مكانه القديم[33]. يظهر في واجهة باب الأسباط الكبيرة ميزات وخصائص العمارة العسكرية التي سادت في القرن 16م، والتي تنتمي إلى مدرسة العمارة العثمانية مع الإبقاء على بعض تقاليد العمارة المملوكية، بنيت الواجهة من حجارة كبيرة الحجم خاصة المداميك السفلية، وتم فتح باب مستطيل وسط هذه الواجهة متراجعا قليلاً عن مستوى الواجهة.

باب العامود

سمي بهذا الاسم لوجود عامود من الجرانيت الأسود في أعلاه تمثال أدريانوس الذي أعاد بناء القدس سنة 135م، لكنه أزيل من مكانه الذي كان يتوسط الساحة الداخلية وراء الباب، ويقع باب العامود في الناحية الشمالية من سور القدس، وقد جدد بناء الباب في موقعه القديم سنة 944ه/ 1536م، وهو الباب الأكبر لبوابات القدس، وله

---

[30] سجل محكمة القدس الشرعية رقم 33 ص 883.

[31] المصدر نفسه، رقم 33 ص 1334.

[32] غوشة، محمد، بوابات القدس، مؤسسة شومان، عمان، 1992، ص 61- 64 والعارف، عارف، تاريخ قبة الصخرة، ص 215.

[33] العارف، عارف، تاريخ قبة الصخرة، ص 213- 214.

أسماء عدة منها باب دمشق لكونه معبرا لدخول وخروج القوافل من، وإلى دمشق[34].

باب الساهرة

يقع أسفل برج السور من الجهة الشمالية، وتم فتحه على شكل قوس نصف دائري، وتوجد أعلى الباب طاقة صغيرة للمراقبة، وأعيد بناؤه في موضعه القديم سنة 947ه، غير أن البنّائين أحدثوا في الباب قوسا مستديرة على شكل قبو في الجهة الشمالية، وأغلقوا الباب الصغير الذي كان مفتوحا على الناحية الشرقية لبرج باب الساهرة[35]. كما أعيد ترميم باقي بوابات القدس في مواضعها القديمة سنة 947ه، وقد اتخذت أشكالا مختلفة نظرا لطبيعة الغرض الذي أنشئت من أجله تلك الأبواب والموقع الذي وجدت فيه.

باب الخليل

يقع في الجدار الغربي لسور مدينة القدس القديمة، مقابل قلعة القدس. ويرجح أن فريقا من معماريين محليين ووافدين من مدينة حلب قاموا ببناء الباب، وهذا الباب كان يستقبل القادمين إلى مدينة القدس القديمة من الغرب والجنوب، لذلك سمي باسم مدينتي الخليل ويافا الواقعتين غرب وجنوب هذا الباب

العمارة العامرة أو مجمّع خاصكي سلطان

ازدادت حاجة السكان لمياه الشرب باضطراد مع زيادة أعدادهم نظرا لاتساع المدينة وتهافت الناس عليها من كل حدب وصوب، كذلك زاد الطلب على إيجاد دور لإيواء وإطعام الفقراء والمحتاجين، وعابري السبيل، وطالبي العلم ممن قصدوا المدينة بغية إذكاء قيمهم الروحية، فأنشأت الأسبلة، والأقنية، والبرك وتم ترميم الدشاديش القديمة التي تهدمت، والتكايا والزوايا والحمامات التي كانت تؤوي العديد من حجاج بيت المقدس، بأمر من السلطان القانوني، والدشاديش: هي جمع

---

[34] غوشة، محمد بوابات القدس، ص: 19- 32. طوطح، خليل، تاريخ القدس ودليلها، مطبعة مرآة الشرق، القدس، 1922، ص 69.

[35] سجل محكمة القدس الشرعية رقم 12 ص 1455.

دشيشة وهي طعام مشوي من القمح المرضوض كانت تقدم للفقراء، ثم أصبحت تطلق مجازا على المطابخ التي تقدم الطعام للفقراء، أما التكايا: فجمع تكية وهي الزاوية التي يتم وقفها لإيواء كل من تقطعت بهم السبل[36].

تكية خاصكي سلطان

تقع في منتصف الطريق الواصل بين سوق خان الزيت وطريق باب الناظر المؤدي إلى الجهة الغربية من القدس. وقد تم الإنتهاء من بناء كافة مرافق المجمع في 15 شعبان 964هـ/ الموافق 13 حزيران 1557م [37]. لهذا المبنى الكبير مدخلان: مدخل شمالي، يقع على طريق عقبة التكية، ومدخل جنوبي يقع على طريق عقبة السرايا.أنشأت التكية خرم شاه أو كما تعرف بـ خاصكي سلطان، زوجة السلطان سليمان القانوني ومنها جاءت التسمية، وهي أول امرأة تبرز بدورها من خلال لقبها كزوجة السلطان. وقد عرف عنها حبها للرعية، وربما كان سبب ذلك أنها كانت جارية قبل ذلك فخالطتهم، وتحسست أوجاعهم. أو ربما بسبب أن القدس والخليل كانتا تحظيان بالاحترام باعتبارهما صنوان الحرمين الشريفين مكة والمدينة، فلذلك فقد بنت خرم شاه في القدس ما كان ينقصها تماماً إذ أنه في الخليل كان يتوفر منذ قرون " سماط الخليل" الذي يوفر الطعام لزوار الخليل. أما القدس التي برزت الآن في هيئة جديدة خلال عهد السلطان سليمان فقد كان ينقصها مثل ذلك لتوفير الطعام إلى العدد المتزايد من زوار هذه المدينة المقدسة، وذلك بعد أن بنت خرم منشأتين مشابهتين في مكة والمدينة.[38] كانت « روكسلانة « وهو اسمها الحقيقي حينما كانت جارية سلافية، وهو الاسم الذي عرفت به أيضاً في الكتابات الأوربية، ترافق السلطان سليمان في معظم زياراته للقدس، فأرادت أن توقف تكية تقوم على خدمة الفقراء والمحتاجين، ومدرسة لطلاب العلم فأسست تكية ومدرسة خاصكي سلطان لهذا الغرض[39]، وكانت

---

[36] البكري، زين الدين، المنح الرحمانية، ص 104، 122.

[37] بركات، بشير، القدس الشريف، ص 2 – 21.

[38] أرناؤوط، محمد، «تكية خاصكي سلطان» في القدس رمز لمساهمة المرأة في الوقف خلال العصر العثماني، كما هو متوفر على الموقع 1 www.alhayat.com كانون أول 2012.

[39] العسلي، كامل، وثائق مقدسية تاريخية، مج1، كامل العسلي، عمان،1983، ص 145–151

هذه التكية تقدم 500 وجبة مرتين في اليوم، في الظهر وعند الغروب، وهذا رقم ليس بالقليل إذا أخذنا في الاعتبار عدد سكان القدس في القرن الأول للحكم العثماني « 3 - 4» ألاف.[40] كما ألحقت بالتكية مرافق أخرى مثل الحمامات ودور الرعاية الصحية، والخانات ذوات الإسطبلات، والدكاكين التي لم يبق من آثارها شيء سوى البوابة الرئيسة المؤدية إلى ساحة مفصولة بدرج عريض الذي ينفذ إلى ساحتين فيهما فرنان حجريان جنوبي، وآخر شمالي ومطبخ، ويقع المطبخ خلف الفرن الجنوبي الذي ما زال يقدم الحساء للفقراء حتى اليوم، كما يوجد بعض الأواني التي كانت تستخدم للطبخ في المطبخ القديم، يمكن مشاهدتها في المتحف الإسلامي في القدس في يومنا هذا[41].

بنيت العمارة العامرة (خاصكي سلطان) بمباركة السلطان سليمان القانوني لهذا المشروع سنة 959ه، وكانت تعد أهم مؤسسة خيرية في القدس في ذلك الوقت، وقد ضمت في فنائها مسجدا في أعلى بقعة فيها، وتم إقامة عمارة في الجانب المقابل للمسجد التي ضمت مطبخا وفرنا، ومخازن مختلفة أوقفت على الضعفاء والمحتاجين، ورباطا للدراويش يتألف من: خمس وخمسين حجرة للمبيت والمأكل بدون مقابل، وأربع خانات واسعة لعابري السبيل، بالإضافة للمدرسة.[42]

وقفت عقارات عدة كأوقاف للتكية في مختلف أرجاء فلسطين في الرملة وغزة وبيت لحم، وحتى وجدت أوقاف لها في طرابلس الشام، وذلك لتوفير مورد مالي تمكنها من تقديم الخدمة لمن لجأوا إليها، ثم أوقف السلطان سليمان القانوني أوقافا إضافية عقب وفاة صاحبة التكية سنة 967هـ، وذلك لتتمكن من استمراريتها بتقديم المساعدة لمن يحتاجها.[43]

---

[40] أرناؤوط، محمد، «تكية خاصكي سلطان» في القدس رمز لمساهمة المرأة في الوقف خلال العصر العثماني، كما هو متوفر على الموقع 1 www.alhayat.com كانون أول 2012.

[41] العسلي، كامل، وثائق مقدسية تاريخية ص 145-151.

[42] سجل محكمة القدس الشرعية رقم 270 ص 18-49.

[43] العسلي، كامل، وثائق مقدسية تاريخية، مج1، عمان، 1983، ص 145-151.

حمّاما خاصكي سلطان

تم تخصيص مبلغ مالي، من قبل مصطفى الجلبي ناظر الحرمين الشريفين، لبناء حمامين جديدين، كمرافق إضافية لتكية خاصكي سلطان[44]، وتم شراء قطعة من الأرض في حارة الغوانمة، لهذا الغرض من قبل فرهاد جلبي متولي وقف العمارة العامرة، وأمينها، بوكالة شرعية عن صاحبة التكية بثمن بلغ قدره ثلاثمائة سلطاني من الذهب الجديد[45]، وذلك سنة 961ه. تم القيام بأعمال التبليط سنة 963ه في الحمامين الجديدين، وألبس الشاذروانان بالبلاط الرخامي الملون، بمعرفة المعلم خليل بن نمر وأخوه محمود، بتكلفة وصلت إلى خمسة وسبعين سلطانيا ذهبا[46]، والشاذروان: عبارة عن كلمة فارسية معربة، وتعني بركة صغيرة من الماء، يخرج من أسفلها قناة تسمى سلسال[47]. تم إيصال ماء السبيل القريب من باب القطانين بالحمامين عبر قناة مائية أنشأت لاستمرار وصول المياه إلى الحمامين دون انقطاع[48].

تعمير المنشآت المائية

كانت مدينة القدس شحيحة المصادر المائية، وكانت تعتمد على جر المياه إليها من القرى المجاورة مثل قرية سلوان، وعلى مياه الأمطار التي يتم تجميعها في الآبار والبرك والصهاريج، كما سحب الماء من «عين العروب» التي تقع بين القدس والخليل، إلا أن ذلك لم يكن كافيا لتوفير المياه لسكان المدينة المتزايد أعدادها باضطراد، الأمر الذي حدا بالسلطان القانوني بالاهتمام بتعمير البرك والآبار والصهاريج، وهي الآبار التي تم حفرها داخل منازل القدس داخل السور لجمع مياه الأمطار وحفر الأقنية والسبل لإيصال المياه لكافة أرجاء المدينة، وخاصة توفير المياه دون انقطاع للحرم القدسي الشريف مع ازدياد أعداد المصلين الذين قصدوا المدينة آمّين بيت المقدس.

---

[44] سجل محكمة القدس الشرعية رقم 26 ص 468.

[45] المصدر نفسه، رقم 28 ص 1571.

[46] المصدر نفسه، رقم 31 ص 502.

[47] غالب، عبد الرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية، جروس برس، بيروت، 1988، ص 223.

[48] سجل محكمة القدس الشرعية رقم 31 ص 503

قناة السبيل

هي قناة رومية أنشأها الرومان لرفد مدينة القدس بالماء بطول 47كم، وتخترق القناة عددا من الكتل الصخرية الضخمة عبر أنفاق غاية في الروعة، وقد تم تحويل مياه العيون والسيول إليها لتغذية الآبار والبرك بالماء، ولكنها دمرت على مر العصور، واختفى جزء كبير منها بفعل عوامل عدة، مثل الحروب، والنحت والتعرية، واعتداء بعض قطاع الطرق والعابثين.[49] لم يكتف السلطان بتعميرها، بل أوقف عليها الأوقاف للإنفاق من ريعها على تعمير القناة والبرك، وقد جرى تعمير القناة والبرك سنة 943هـ. حيث يذكر الدفتر رقم 602 من دفاتر الأراضي العثمانية ذلك، وهو مؤرخ في سنة 945هـ، ويشير الدفتر إلى وقف الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار، وعلى القناة وتعميرها زمن المماليك[50] هذا وقد عقد مجلس شرعي سنة 948ه في قبة السلسلة، وقرر السيد محمد جلبي النقاش، وشهد على نفسه أنه قد عمّر قناة السبيل من برك سليمان إلى القدس، وقد أوقفها على عامة المسلمين، وعلى أوقاف عامة المسلمين، وأنه عمّر بالإضافة إلى ذلك السبل الواصلة إليها من مياه برك سليمان بوساطة القناة المذكورة. وأن السيد الجلبي نفسه قد جعل جميع ما أنشأه، وقفاً شرعياً من أوقاف المسلمين العامة وصدقة جارية عن روح السلطان سليمان القانوني، ومنذ ذلك التاريخ نسبت البرك إلى سليمان، وأنه قد وقف على ذلك قرى عدة منها: كفر طاب، ومفلس، وجنداس، وترقومية، ونصف قرية القباب، وغيرها كما هو مذكور في كتاب وقف المدرسة التنكزية[51]. كان دخل القناة من الوقف يتراوح بين 9 – 10 أقجة سنويا، ثم ارتفع إلى 13 ألف أقجة سنة 959هـ.[52]

أمر السلطان سليمان القانوني بإعادة تعمير الجزء المؤدي إلى مدينة القدس، وتم تعمير البرك والآبار على جانبيها، لتزويد المدينة بالمياه وتم ربطها بأسبلة وشبكات

---

[49] العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، ص 438.

[50] الحسيني، محمد أسعد، جذورنا في بيت المقدس، صحيفة المنار، 12 شباط 1996، ص 10.

[51] الحسيني، محمد أسعد، المنهل الصافي في الوقف وأحكامه والوثائق التاريخية للأراضي والحقوق الوقفية الإسلامية في فلسطين، ب.ن. القدس، 1982، ص 109-110.

[52] الحسيني، محمد أسعد، جذورنا في بيت المقدس، ص 10.

متصلة لإيصال المياه لمختلف أنحاء المدينة.[53]

برك سليمان

وكانت تسمى «برك المراجيع»، وهي ثلاثة أقيمت على ارتفاعات مختلفة، وأطلق عليها «البركة الفوقا»، و«البركة الوسطى»، و«البركة التحتا»، ربطت بقناة السبيل، وكانت المياه التي تنساب عبرها تنصب في آبار حفرت في أرض الحرم، وفي الأقنية والشبكات المتصلة، حتى تصل إلى كل بيت.[54]

أسبلة السلطان سليمان القانوني

توزعت هذه الأسبلة في أنحاء عديدة من مدينة القدس، وهي سبعة أسبلة تم إقامتها في نفس السنة، سنة 943ه/1536م، بفرمان من السلطان القانوني[55]، وقام بإنشائها للتغلب على النقص الحاصل للمياه خصوصا في فصل الصيف، وربطها بشبكة من القنوات المتصلة بقناة السبيل وبرك سليمان.[56]

سبيل باب الناظر

يقع بالقرب من رباط بيرم جاويش، الذي أنشأه في شهر رمضان سنة 943ه/1536م بأمر من الباب العالي عند التقاء الطريق المؤدي إلى باب الناظر بطريق الواد من الناحية الشمالية، وصفه «فان برشم» في مطلع القرن المنصرم بأنه لوحة من السحر والجمال، يحيط بالسبيل عامودان صغيران مرصعان بتاجين لاتينيين، ويقع فوق الفتحة قوس مطعمة بزخارف لاتينية، كما يوجد في وسط الواجهة نقش من ثلاثة أسطر كتبت بخط النسخ العثماني يفيد بأن السلطان سليمان القانوني أمر ببنائه، و كان يوجد فيما مضى حوض حجري للماء، إلا أنه أزيل، والسبيل اليوم في حالة

---

[53] المصدر نفسه، ص 438.

[54] المصدر نفسه، ص 438.

[55] العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، ص 265

[56] العسلي، كامل، من آثارنا في بيت المقدس، ص 259.

سيئة، فقد بهتت معالمه واختفى الماء من صنبوره حاله كحال غيره من السبل.[57]

سبيل بركة السلطان أو سبيل باب الخليل

وهو واحد من سبعة أسبلة أقيمت بأوامر من السلطان سليمان القانوني، يتكون هذا السبيل من كتلة حائطية حجرية بنيت من حجارة بيضاء مشذبة ذات أحجام متنوعة. وهو عبارة عن تخطيط مستطيل يبلغ طوله 3,70م وعرضه 1,5م. يقوم في صدر كتلة السبيل حنية يبلغ عمقها 71سم وطولها 1,9م، يعلوها عقد مدبب ينبت من حدرتين تستندان على طرفي بدن الكتلة الحجرية. ويتكون العقد من صنج حجرية مزخرفة بحلية منشارية أو ما يعرف بعقد الفارس، ويحيط بصنج العقد زخرفة قالبية غائرة، ويوجد على كل جانبي العقد صرة دائرية حجرية بارزة خالية من العناصر الزخرفية تشبه القرص.

يوجد هذا السبيل خارج حدود القدس القديمة، ويقع في الناحية الجنوبية الغربية من باب الخليل وقد تفرد بذلك عن باقي الأسبلة الستة، ومكانه قريب من «جورة العناب» باتجاه باب الخليل، وهو بذلك يقع في منطقة حيوية تستقبل زوار المدينة القادمين من جهتي الغرب والجنوب كان متصلا بالبركة من الناحية الجنوبية، إلى الشمال من طريق القدس إلى بيت لحم، وهو يشبه باب مسجد صغير كما رسمه «فان برشم». يتوسط السبيل لوحة رخامية يبلغ قياسها 55 سم نقش عليها بأن السلطان سليمان الأول أمر ببنائها في العاشر من محرم سنة943ه. وقد كتب عليها الآتي « أمر بإنشاء هذا السبيل المبارك مولانا السلطان الملك الأعظم والخاقان المكرم مالك رقاب الأمم سلطان الروم والعرب والعجم السلطان سليمان بن السلطان خان خلد الله ملكه وسلطانه بتاريخ عاشر شهر محرم الحرام في سنة ثلاثة وأربعين وتسعمائة»[58] بني مسجد مقابل السبيل إلا أنه لم يعد له وجود الآن بسبب توسعة الطريق في القرن الماضي.[59] أوكل الإشراف على البناء محمد جلبي النقاش.

---

[57] المرجع نفسه، ص 274-276.

[58] Natsheh, Y, Sabil Birkat Al- Sultan. In Auld, S. and Hillenbrand, R. eds, *Ottoman Jerusalem the Living City 1517- 1917*, part 11, London, 2000.

[59] العسلي، كامل، من آثارنا في بيت المقدس، د.ن، عمان، 1982، ص 274-276.

وقد تحول السبيل اليوم إلى مسرح للحفلات الغنائية على أيدي سلطات الاحتلال.[60]

سبيل باب القطانين

ويعرف أيضا بسبيل الواد الواقع شرقي طريق الواد بقرب درج العين، ليس ببعيد عن مدخل سوق القطانين الغربي، وإلى الجنوب من المدخل تحديدا، توجد قوس فوق فتحة المياه، ويستند طرفا القوس على أعمدة منحوتة، ويوجد لوح رخامي كتب عليه ما يشهد للسلطان سليمان القانوني بأنه من أمر ببنائه بتاريخ أول شهر رجب المرجب من شهور سنة ثلاثة وأربعين وتسعمائة. يبلغ طول حوض الماء أسفل الفتحة مترين، وارتفاعه 54سم، وهو مصنوع من الحجر الأحمر الصلب، وتوجد عليه عروق، وتم تغطية وجه الحوض بأقراص ثلاث في إطار مستطيل، ويعتقد أن الحوض كان تابوتا تم نقله إلى السبيل من مكان آخر. كان يوجد بالقرب من السبيلحمام يدعى "حمام تنكز"، وكانت المياه الواصلة إليه لا تكفي حاجة الحمام، فاستفاد من قربه من سبيل باب القطانين لتعويض النقص الحاصل في المياه.[61]

سبيل باب السلسلة

يقع هذا السبيل الذي يتميز بزخرفة معمارية بديعة في الميدان الصغير المعروف بساحة باب السلسلة، وهو يقابل الباب من الجهة الغربية، وفي ظهر الحائط الخارجي الشرقي لدار الخالدي، وهو أحد ساكني المدينة من المقدسيين. تشبه واجهة السبيل البوابة المستطيلة، يعلوها قوس عليه إفريز متعرج، والإفريز: جمعه أفاريزُ: وهو ما أشرف من الحائط خارجًا عن البناء وهو عبارة عن جزءٍ بسيط مزخرف يبيِّن الحِلْية المعماريَّة،[62] وعلى جانبي الواجهة أعمدة مجدولة رفيعة جداً، وفي وسط الواجهة تحت القوس خمس وردات متفتحة لها تسعة برانق (أوراق)

---

[60] www.youtube.com، بركة السلطان في القدس تتحول لمسرح لحفلات اليهود.

[61] العسلي، كامل، من آثارنا في بيت المقدس، ص 274-276.

[62] قاموس المعاني لكل رسم معنى، معنى إفريز: http://www.almaany.com

بارزة، وكانت في الأصل 13برنقاً، وعلى الجانبين في أعلى الواجهة تاجان بارزان، ويلتف حول الواجهة كورنيش ينتهي بثنية حلزونية من الأسفل، وتحت الوردات المتفتحة لوحة رخامية تفيد بأن السلطان سليمان القانوني أمر بإنشائها، بتاريخ ثاني وعشرين شهر رجب المرجب من شهور سنة ثلاثة وأربعين وتسعمائة». يوجد على جانبي الواجهة، في هذه الأيام، دائرتان كتب على اليمنى منهما « وقف» وعلى اليسرى « إسلامي». كان هناك حوض للسبيل تحت لوحة النقش، لكنه أزيل أثناء التعميرات التي جرت في القرن الماضي، ويبلغ طول هذا الحوض 202سم وارتفاعه 25سم، وكان يتكون من الحجر الملكي لا المزي. كان هناك حوض مماثل في المدرسة التنكزية المجاورة للسبيل (التي تدعى أيضا المحكمة)، وقد أخذ هذا الحوض ووضع في متحف اللوفر بباريس سنة 1866م. ويعتقد أنه كان من قبل تابوتاً، وقد استعمل في الأسبلة كما استعمل غيره من الأحواض في الفساقي التي أنشأها قايتباي. والفَسْقِيَّةُ : حوضٌ من الرُّخام ونحوه مستدير غالبًا، تمجُّ الماءَ فيه نافورة، ويكون في القصور والحدائق[63] كان في مكان سبيل باب السلسلة، فيما يبدو، حوض أو فسقية حل السبيل محلها، ويظهر ذلك من قول مجير الدين: « إن السلطان قايتباي عمر من جملة ما عمره: السبيل (أي سبيل قايتباي المشهور) والفسقية التي بالقرب منه قبلي المسطبة المجاورة للسبيل، وهي في تقديرنا في موقع سبيل قاسم باشا الآن، والفسقية التي هي[64] بين باب السلسلة وباب السكينة، وكان قديماً مكانها حوانيت، ويقابلها من جهة القبلة حوانيت أخرى، فأزيلت الحوانيت من الجانبين وعمرت الفسقية المذكورة، والتي بداخل المسجد، فانتفع الناس بهما في الوضوء والاستعداد لأداء الصلاة. وأخيراً فإن سبيل باب السلسلة، كان يستمد ماءه من فرع لقناة السبيل.

سبيل باب العتم

لا يختلف سبيل باب العتم كثيرا عن غيره من الأسبلة من حيث الشكل. وهو عبارة عن بناء مستطيل الشكل. وضع بأسفله حوض حجري للماء، وقد كان

---

63 قاموس المعاني لكل رسم معنى، معنى الفسقية: http://www.almaany.com

64 المرجع نفسه، ص، 267-271.

الحوض تابوتا فيما مضى أحضر من موقع آخر، ويمتد طولاً بعرض بناء السبيل. ويوجد صنبور للماء في منتصف واجهته يقع تحت نقش كتابي تذكاري كتب باللغة العربية على لوح من الرخام، يبين اسم السلطان وألقابه، وسنة البناء. وهناك نقش آخر باللغة التركية، فوق النقش المشار إليه، وقد ورد فيه ما كتب في النقش المنقوش بالعربية. وتقوم مجموعة مقرنصات فوق ذلك كله. وتتكون هذه المقرنصات من أربع حطات جميلة الشكل. وفوق ذلك كله، يقوم عقد مدبب، متموج الشكل"[65]

سبيل السيدة مريم (سبيل باب الأسباط)

وهو آخر الأسبلة من حيث تاريخ عمارته الذي أنشأه السلطان سليمان القانوني في القدس، وهو يقع على الجانب الشمالي من طريق المجاهدين أو طريق (ستنا مريم) على مقربة من باب الأسباط، لا تفصلهما سوى أمتار قليلة وتميز بناؤه بالبساطة عن باقي السبل السليمانية الأخرى، ولكنه يشبهها في مظهره العام، ولا توجد زخارف على حوضه ولا على الواجهة عموماً، أما لوحة التأسيس في وسط الواجهة فقد انتزعت منذ زمن بعيد، في محاولة من قبل أحد السكان المجاورينلإخفاء الوضع القانوني للمبنى بوصفه من عقارات الوقف،ولكن نصها يشبه باقي نصوص اللوحات الأخرى للسبل السليمانية، وهناك لوحة صغيرة أخرى ما تزال مقروءة فوق اللوحة الأصلية، وفيها سطران من الخط العثماني هذا نصهما: "سلام على روح النبي المطهر أجرت مياها ككوثر".[66]

كان السبيل يستند سابقاً إلى جدار قديم، هو جزء من بناء ذي طابق واحد، وأصبح يستند إلى جدار بناء جديد نسبياً، مؤلف من طابقين، وهذا البناء الحديث هو في الواقع دير القديسة حنة التابع للروم الكاثوليك، وفي هذا البناء من الجهة الشرقية أيضاً وفي مواجهة سور المدينة يقوم الآن حمام العذراء مريم. ومما هو جدير بالذكر أنه كان تصل إلى سبيل السيدة مريم قناة تحت الأرض

---

[65] نجم، رائف وآخرون، كنوز القدس، مؤسسة آل البيت، عمان، 1983، ص 129.

[66] العسلي، كامل، من آثارنا في بيت المقدس، ص 276-279.

تحمل الماء إليه من قناة السبيل، وكان قسم من ماء هذا السبيل يذهب إلى حمام السيدة مريم، أو حمام باب الأسباط حسب حاجة الحمام وكفايته.[67]

خاتمة

عرفت مدينة القدس في عهد السلطان سليمان القانوني عهدا من الرخاء والازدهار والسكينة، فأُحكمت أسوارها وحُصّنت قلاعها وأُغلقت أبوابها في وجه الغزاة المعتدين، ونعم أهلها بالأمان، فظلوا طيلة قرون ثلاث ينامون وراء أسوار منيعة، كما أُجريت الترميمات الضرورية لأهم معالم المدينة، مثل قبة الصخرة المشرفة، وأُنشأت التكايا لفقرائها، وعُمرت البرك وأُصلحت القنوات وأُقيمت الأسبلة لإيصال مياه الشرب لساكنيها، لتبقى هذه الحقبة الزمنية من تاريخ القدس الطويل شاهدة على عصر مجيد، تستحضر منه ما تقاوم به سياسة تهويد المدينة في محاولات يائسة من قبل سلطات الاحتلال، لطمس معالم أسلمتها، فكلما لمست حجرا، إلا وينبؤك عن ماض تليد.

---

[67] المرجع نفسه، ص، 276- 279.

الخانات العثمانية في لبنان في القرن التاسع عشر
محطة تواصل إقتصادي وإجتماعي مميز

عبد الله سعيد*

تقديم

بعد الاستقرار الأمني والسياسي الذي شهدته متصرفية جبل لبنان، خلال النصف الثاني من القرن التسع عشر، بفعل ارتباطها إداريا مباشرةً بالباب العالي في الأستانة، وإشراف الصدارة العظمي عليها، نمت الخانات في لبنان بشكل عام، وفي جبل لبنان بشكل خاص، وذلك بعد أن أصبحت سنجقاً عثمانياً منظماً على نسق السناجق العثمانية الأخرى (متصرف عثماني، ومجلس إداري، ومحاكم ابتدائية، وضبطية، ودوائر عثمانية تركية وعربية (أقلام حكومية). وبعد أن أصبحت بيروت مدينة تجارية بامتياز، ومركزاً ثقافياً متنوراً على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط تستقطب التجار والمستشرقين الغربيين والعثمانيين على السواء، والراغبين بنيل درجات التعليم العالي من اللبنانيين الجبليين والعرب في جامعتي القديس يوسف (اليسوعية) والجامعة الأمريكية. لذا، نشأت في بيروت ومدن ودساكر المتصرفية الأبنية العثمانية من خانات وسرايا (سرايات)، وحمامات، وقصور ومساجد تراثية ما زال بعضها ماثلاً للعيان حتى الآن.

تعريف الخان

إن الخانات، ومفردها خان[1]، هي كلمة فارسية الأصل تعني منتجعاً على الطريق، أي بمعنى آخر الخان هو منزل مؤثث أو نَزل مفروش مهيأ لمبيت وإقامة المسافرين

---

* أستاذ في الجامعة اللبنانية

[1] لطفي المعوش: موسوعة المصطلحات التاريخية العثمانية، عثماني- تركي- عربي، مكتبة لبنان، ناشرون، صائغ، الطبعة الأولى، بيروت 2012، ص 126

والتجار وتأمين راحتهم وتقديم الطعام والشراب لهم. لذا، كان الخان، يقوم في أحيانٍ كثيرة بمهام الفندق الصغير في عصرنا الحديث كما أنه يمكن أن يكون دكاناً أو حانوتاً كبيراً للتجار. إذن الخان في العمارة الإسلامية نوعٌ من أنواع العمائر التجارية التي تبنى لتكون مكاناً يقصده التجار للاستراحة وبيع ما يحملونه من سلع.

وقد عُرفت الخانات من حيث وظيفتها منذ مطلع العصر الإسلامي، ولعل أقدم خان أنشئ في هذا العصر هو الخان الذي بناه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عام 109هـ / 728م، بمكان غير بعيد عن قصر الحير الغربي في البادية السورية[2] مع الزمن، تطورت الخانات في الحقبة المملوكية بتأثير من الازدهار التجاري بين الغرب والشرق، حيث أقيمت الخانات على طول الطرق الرئيسة، وخصوصا بين دمشق والقاهرة، ودمشق وبغداد، وصارت محطات توفر إمكانية المبيت للقوافل والمارة.

ومن الواضح أن مصطلح خان قد توسع استخدامه منذ القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد، ليحل محل كل التسميات السابقة التي أطلقت على استراحات المسافرين في الحقب السابقة، مثل مصطلح "الدار" الذي شاع في سورية والعراق خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وذلك للدلالة على تلك الاستراحات، وكذلك مصطلحا "دار الوكالة"[3] و"سراي القوافل" اللذان كانا يستخدمان للدلالة على استراحات التجار داخل المدن في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد، ثم مصطلحا الفندق والقيسارية[4] اللذان شاعا في القرن 7هـ/13م. ولقد شيدت الخانات

---

[2] عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، الطبعة الأولى، دار جروس برس، طرابلس لبنان، 2007.ص 132

[3] خان دار الوكالة في طرابلس يعود إلى العهد المملوكي؛ عمر عبد السلام تدمري: تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في العصر المملوكي، من الفتح المنصوري حتى الآن، 688-1394هـ/1298-1974م. دار البلاد، طرابلس 1394هـ/1974م، الهامش ص 36

[4] القيسارية، أو القيصرية: هي مبنى ذو فناء داخلي مستطيل الشكل تُفتح عليه دكاكين أو ورش الحياكة، و دومينيك شوفالييه: مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية الأوروبية، نقلته عن الفرنسية منى عبد الله عاقوري، نظر في الترجمة أحمد بيضون، دار النهار، بيروت 1994، ص 382 و517

على طراز يؤمن راحة المسافرين، ويلبي احتياجاتهم، ويسهل قيامهم بعملية بيع وتبادل سلعهم.

في الحقبة العثمانية، و"لأجل ضمان السفر المريح والأمن على هذه الطرقات فقد بادر السلاطين أنفسهم إلى بناء منشآت في إطار الأوقاف، كما شجعوا رجال الدولة والبلاط على أن يحذوا حذوهم في ذلك بعد أن منحوهم الحيازات الكبيرة. وكانت بعض هذه المنشآت تشبه " العمارات" في المدن، إلا أنها كانت تقتصر هنا على الخان واستراحة القوافل وربما على جسر أيضاً ... (حيث)قام مراد الثاني في سنة 1443م ببناء جسر حجري ... على نهر أركنه Ergene قرب أدرنه. وقد بنى في نهاية الجسر خاناً يستقبل المسافرين ويقدم لهم الوجبات المجانية[5] ..." ثم ازدهرت عمارة الخانات، وانتشرت بشكل ما لبث أن تحول محيطها إلى مكان جذب عمراني، كما حصل لخان العسل بالقرب من حلب حيث كان سبباً لوجود قرية خان العسل حوله، وخان الحرير في سد البوشرية في ساحل المتن الشمالي في لبنان حيث نمت وتوسعت قرية الجديدة المتن لتصبح مدينة كبيرة، وخان يونس في فلسطين حيث نشأت قرية خان يونس على اسم الخان الذي بناه الأمير يونس المعني في القرن السادس عشر للميلاد، وخان الجمهور قرب مدينة بعبدا عاصمة متصرفية جبل لبنان من سنة 1861م إلى سنة 1918م، حيث نشأت ونمت قرية الجمهور الحالية هناك على طريق بيروت – دمشق[6]، وتأسست بالقرب منها مدرسة سيدة الجمهور التي تعد من مدارس الدرجة الأولى الخاصة في لبنان، كما أقيمت على أنقاضه محطة الجمهور لسكة الحديد التي تربط بيروت بدمشق؛ وخان عين صوفر الذي بسبب دوره الاقتصادي انتقل أهالي قرى الجرد والمتن كشارون وبدغان وقبيع للسكن بقربه وبناء قرية صوفر الحالية التي لعبت، من خلال موقعها ألاصطيافي الجميل، وفندقها الكبير، دوراً هاماً، في النصف

---

[5] خليل اينالجيك: تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار. ترجمة محمد الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دار المدى الإسلامي، بيروت 2002 ، ص227

[6] لقد تم عام 1858م تلزيم شق طريق بيروت - دمشق لشركة فرنسية بهدف تعبيدها ل تصبح صالحة سير العجلات، العربات أسد رستم: لبنان في عهد المتصرفية، دار النهار للنشر، بيروت 1973م.ص 982

الأول من القرن العشرين، في السياسة العربية المعاصرة، وكمحطة أساسية على طريق دمشق بيروت آنذاك، أومن خلال استقطابها للمصطافين العرب من زعماء ورؤساء وملوك(مصر والعراق والحجاز ولبنان والأردن وسورية) في تقريب وجهات النظر التوحيدية بينهم والتنسيق بين دولهم، فكانت من ثمرة لقاءاتهم ولادة فكرة الجامعة العربية، عام 1994م، وغيرها من الأمثلة العديدة.

أنواع الخانات بالنسبة لموقعها

كانت الخانات حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، موجودة في المدن وفي بعض المناطق شبه النائية، وعلى الطرقات الترابية التي كانت تربط الولايات بعضها بالبعض الآخر. وكان زوار وزبائن تلك الخانات هم من عابري السبيل والتجار والقوافل التي كانت تذهب بتجارتها من بلاد مصر إلى بلاد الشام على سبيل المثال، فكانوا يحطون رحالهم بتلك الخانات بعد سفر مرير وشمس حارقة وعطش جمالهم وخيولهم[7] ولكن مع تقدم العلاقات التجارية بين الغرب الأوروبي ومدن المشرق العربي بشكل خاص والبلاد العثمانية والإسلامية بشكل عام اتسعت دائرة الخانات لتغطي مختلف المدن والطرقات العثمانية ذات الصلة بالتجارة المحلية والإقليمية والقوافل العالمية. وهكذا، كانت الخانات على نوعين:

الأول: وهي التي تبنى على طرق التجارة خارج المدن وتسمى خانات الطرق كخان المديرج وخان

الخفر (خان مراد) وخان مزهر، وخان المصنع والجديدة على طريق بيروت دمشق[8].

والثاني: وهي التي كانت تبنى داخل المدن بشكل عمارات ترتبط بالأسواق

---

[7] مازن علي حاجي: الخان، مقال منشور في مجلة "الحقيقة" الكردية العراقية، تاريخ2009/1/5.

[8] مصور خريطة خانات طريق بيروت- دمشق، سالنامة ولاية سورية محرم 1298هـ/ كانون الأول 1880م، وشوال 1309هـ/ أيار 1891م. وثيقة رقم1

التجارية، وتكملها، وتقوم بوظائف مساعدة لها، كخان الإفرنج وخان الرز وخان الزيت في صيدا[9]، وخان الصابون وخان الخياطين وخان العسكر في طرابلس[10].

خانات طريق بيروت – دمشق

شاعت الخانات على طرق القوافل الممتدة بين المدن في الولايات العثمانية، وكانت المسافات فيما بينها خارج المدن الكبرى، في بداية قيامها وقبل أن تدخل المنافسة في إنشائها، تُحدد بمسيرة يوم واحد أو أقل بالنسبة لعربات القوافل ولدواب النقل، أي ما يقرب من عشرين أو ثلاثين كيلومتراً[11] ، تبعاً لوعورة الطريق وسهولتها. ولكن في بعض المناطق الجبلية الصعبة المسالك كانت المسافة تُختصر لتصبح ثلاثة أو خمسة أو عشرة كيلومترات، كما هي الحال بالنسبة لخانات طريق بيروت – دمشق على سبيل المثال لا الحصر[12]، حيث بلغت المسافة انطلاقاً من مدينة بيروت عام 1298ه/1880م أي من بداية طريق بيروت – دمشق، البالغ طولها، آنذاك، نحو 113 كيلومتراً، فكان أول خان أقيم على هذه الطريق (الشوسة باللغة العثمانية، أي الطريق الصالحة لسير العجلات) وعلى مسافة اثني عشر كيلومتراً عن وسط بيروت، وعلى نحو 101 كيلومتراً من دمشق الشام هو خان الجمهور؛ ثم يليه خان شيخ محمود(خان الشيخ) على مدخل مدينة عاليه (أولى مدن الاصطياف اللبناني) الذي كان يبعد عن خان الجمهور مسافة خمسة كيلومترات وعن بيروت مسافة 15 كيلومتراً وعن دمشق مسافة 98 كيلومتراً؛ وعلى بعد خمسة كيلومترات من خان شيخ محمود وعشرين كيلومتراً من بيروت كان يقع

---

[9] الصور المرفقة؛ وطلال ماجد المجذوب: تاريخ صيدا الاجتماعي 1840-1914م. المكتبة العصرية. بيروت–صيدا، 1403هـ/1983.ص 282-281

[10] الصور المرفقة؛ وعمر عبد السلام تدمري: تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس...، مرجع سابق الهامش، ص 36؛ وسميح الزين: تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً منذ أقدم الأزمنة حتى عصرنا الحاضر، دار الأندلس، بيروت. 1389هـ/1969م، ص 437 و438

[11] عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، الطبعة الأولى، دار جروس برس، طرابلس لبنان، 2007، ص 140.

[12] مصور خريطة خانات طريق بيروت– دمشق، الوثيقة السابقة.

خان بودخان(بائع الدخان) في بحمدون المحطة حالياً عند مدخل المتن الأعلى على مفرق قرية القرية التي كانت مركز معامل حل الحرير الفرنسية الحديثة آنذاك، وبإتجاه قصبة حمانا الشهيرة بشاغور مائها العذب وبموقعها ألاصطيافي الهام في جبل لبنان، أي على مسافة 93 كيلومتراً من دمشق الشام. أما خان عين صوفر (قرية صوفر حالياً)، فكان يبعد عن خان بودخان مسافة خمسة كيلومترات، وعن بيروت مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً، وعن دمشق مسافة 88 كيلومتراً؛ ثم خان الدارج أي المديرج التي تشكل عقدة مواصلات بين أقضية الشوف والمتن(قضاء بعبدا) وعاليه والبقاع، كان يبعد مسافة ثلاثة كيلومترات عن خان بودخان، وثمانية وعشرين كيلومتراً عن بيروت، وعلى مسافة 85 كيلومتراً عن مدينة دمشق؛ وكان خان مراد يبعد عن خان الدارج مسافة تسعة كيلومترات وعن بيروت نحو37كيلومتراً، وعن دمشق الشام مسافة 76 كيلومتراً؛ كما كان خان قرية المريجات، أول قرية في البقاع بعد ضهر البيدر، يبعد عن خان مراد مسافة ثمانية كيلومترات وعن بيروت 45 كيلومتراً وعن دمشق نحو 68 كيلومتراً، وكان خان زهير في منطقة سهل بر الياس، يبعد عن خان المريجات مسافة ثمانية كيلومترات وعن بيروت مسافة 53 كيلومتراً وعن دمشق الشام مسافة 60 كيلومتراً؛ وكان خان المصنع (نقطة الجمارك والأمن العام اللبنانيين حالياً) يبعد عن خان زهير مسافة تسعة كيلومترات، وعن بيروت مسافة 62 كيلومتراً، وعن دمشق الشام مسافة 51 كيلومتراً؛ أمّا خان الجديدة (نقطة العبور السورية اللبنانية ومركز الجمارك والأمن العام السوريين حالياً)، فيقع على مسافة عشرة كيلومترات من خان المصنع، ومسافة 72 كيلومتراً من بيروت وعلى مسافة 41 كيلومتراً من دمشق الشام؛ بينما يقع خان قرية ميسلون على مسافة اثني عشر كيلومتراً من خان الجديدة ومسافة تسعة كيلومترات من خان الديماس باتجاه دمشق، وعلى مسافة 29 كيلومتراً من دمشق و 84 كيلومتراً من بيروت. بدوره خان قرية الديماس كان يبعد عن دمشق مسافة 20 كيلومتراً وعن بيروت مسافة 93 كيلومتراً. وأخيراً خان الهامة الذي كان يبعد عن خان الديماس مسافة عشرة كيلومترات تقريباً، كان على مسافة عشرة كيلومترات أيضاً من دمشق الشام، وعلى مسافة نحو 103 كيلومترات من مدينة بيروت.

وهذا إن دلت دراسة المسافة بين خانات طريق بيروت - دمشق الشام على شيء، فإنها تدل على عدم اعتماد نظرية واحدة لتحديد مسافة الثلاثين كيلومتراً،

أو مسير سفر يوم واحدٍ للقوافل بين الخان والخان على كامل أراضي الولايات العثمانية. فمن خلال قراءة خريطة خانات طريق بيروت - دمشق الشام، يتبين أن المسافة لم تكن واحدة بالنسبة لخاناتها الثلاثة عشرة، بل تراوحت بين الخان والآخر من ثلاثة كيلومترات، كما هي الحال بين خان الدارج (المديرج) وخان عين صوفر(صوفر)، واثني عشر كيلومتراً بالنسبة لبُعد خان ميسلون عن خان الجديدة. أما لبعد المسافات الأخرى أو قربها لخانيْن عن بعضهما البعض، فلم تتعد العشرة كيلومترات، وكمدل وسطي سبعة كيلومترات[13].

كما أنه من خلال قراءة الخريطة الملحقة يظهر عدم اهتمام الدارسين للتاريخ والآثار اللبنانية بخانات

طريق بيروت-دمشق، على الرغم من وفرتها وأهمية الدور الإقتصادي والأمني الذي لعبته خلال القرن التاسع عشر والنصف الثاني من القرن العشرين. وجل ما اهتم به الدارسون والمؤرخون والمهندسون هو خانات مدن بيروت وصيدا وطرابلس[14]، وحتى أهملوا الخانات الأخرى مع أنها كانت كثيرة كما في زحلة البقاع التي ضمت سبعة خانات، والنبطية في جبل عامل خمسة خانات، وجونية ثلاثة خانات، والبترون أكثر من عشرة خانات، وراشيا الوادي ثلاثة خانات، ومشغرة أربعة خانات، وجزين

---

[13] مصور خريطة خانات طريق بيروت- دمشق، وثيقة رقم 1.

[14] عمر عبد السلام تدمري: تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس...، مرجع سابق، ص 35 و36؛ وعبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، مرجع سابق ص 132-146، وسميح الزين: تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً مرجع سابق، ص 237و438؛ ومحمد البابا: طرابلس في التاريخ، تحقيق فضل المقدم وعمر عبد السلام تدمري، وضع فهارسه وأشرف عليه عبد الله البابا، الطبعة الأولى، جروس برس) طرابلس (ن 1995م، ص 365-366، ونهدي صبحي الحمصي: تاريخ طرابلس من خلال وثائق المحكمة الشرعية في النصف الثاني من القرن السابع عشر، مؤسسة الرسالة ودار الإيمان، الطبعة الأولى، بيروت 1986، ص62 و63، وفؤاد خوري: من مشارف المئة، لبنان: وجوه حضارية، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، رقم 37 ، بيروت 1987 ، ص 399-212، 404 ؛ وحسان حلاق: بيروت المحروسة في العهد العثماني، الدار الجامعية ، بيروت 1987 ، ص 95-96؛ وعصام شبارو: تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين، دار مصباح الفكر، بيروت 1987 ، ص 176-179؛ ورفعت صدقي النمر ، وصالح لمعي مصطفى ، وحسان حلاق ، وحسن زعرور، وحنان قرقوطي (كتاب مشترك) بيروت في المرحلة العثمانية، منشورات تاريخ العرب والعالم، بيروت، (ب .ت) ص 37-38، وطلال المجذوب :تاريخ صيدا الاجتماعي 1840-1914م. مرجع سابق 281-282، وعيرها الكثير من المراجع والجرائد والمجلات.

ثلاثة خانات ...الخ[15].

هندسة الخان:

أما من حيث التصميم، فكان الخان، إجمالاً، مربع المسقط، أو مستطيل الشكل، وغالبًا بطبقتين اثنتين يصل ارتفاعهما إلى 8أمتار، تحتل أركانه أبراج للمراقبة والدفاع. وقد يحيط به سورٌ خارجي مدعم وبوابة مصفحة ضخمة محكمة الإغلاق ليلاً، وكأنه حصن صغير. وكانت غرف المسافرين موزعة بين الطبقتين أو في الطبقة العليا فقط. وفي بعض الخانات المتواضعة، كانت قاعة النوم مشتركةً على شكل علية واسعة يرقدُ فيها المسافرون على منصاتٍ مرتفعةٍ قليلاً عن الأرض، كما تُستعمل للجلوس عليها نهاراً.

ويحتوي الطابق الأرضي، عادةً، على غرف متعددة واسعة ومناسبة لخزن البضائع، وصالحة كمكاتب محلات ودكاكين للتجار، إضافة إلى وجود إسطبل واسع ومعالف للدواب.[16] بينما يحتوي الطابق الأول على غرف صغيرة تفتح على رواق متقدم يلتف حول الأضلاع الأربعة للخان، ويفتح على الفناء بعقود محمولة على دعامات، وتستخدم الغرف للنوم أو كفندق بحيث يحتوي على غرف فخمة لنزول التجار الأغنياء والوجهاء، وأخرى عادية لنزول المسافرين والناس العاديين. وجاءت الواجهات الخارجية للخانات مرتفعة حصينة تؤمن حماية من فيها من اللصوص وأصحاب السوء. وعليه فأغلب الخانات كانت ذات مدخل وحيد ضخم، يسمح بدخول القوافل، وهو مزود بباب كبير وبمتاريس تشبه أبواب الحصون، ويحتوي الخان عادة، في المدن الإسلامية الطابع، على مسجد صغير.

ولقد استُعمِلَت في بناء الخانات مواد تغيرت مع الموقع. فقد تكون من طينٍ أو من قرميدٍ مشوي أو نيئ، كما هي في العراق وإيران ومصر، أو من حجارةٍ كلسيةٍ أو بازلتية كما هي في الشام ولبنان وتركيا. ومن الملاحظ أن خانات السهول كانت

---

[15] استطلاع شخصي

[16] محمد سعيد القاسمي، وجمال الين القاسمي، خليل العظم: قاموس الصناعات الشامية. حققه وقدم له ظافر القاسمي، دار طلاس. دمشق 1988، ص 119

أوسع من خانات الجبال[17]. كما كانت خانات البلاد الباردة تُلو من الصحن المكشوف. ولقد أخذت الخانات إجمالا، بعد انتشار الإسلام، تصميمين رئيسين: الأول إيراني بِقَاعاتٍ متطاولةٍ موازية للصحن المركزي. ولكن هذا التصميم ما لبث أن أخذ شكل الأواوين.

وقد احتلت البوابة في عمارته مركزًا على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية. أما التصميم الثاني فهو بأربعة أضلاع وصحنٍ مركزيّ تحيطُ به الأَروقة، قديم العهد، يعُرَف بطراز البحر الأوسطي.[18] أما النوع الثاني فكان خانات المدُن القديمة التي كانت تشترك مع خانات الطرق في ما تقدم من خدماتٍ؛ وتضم من مرافق، وتُتلف عنها في أخرى، إضافةً إلى ما كان يمكن أن تقدمه المدينة بشكلٍ أفضل لزوارها، كالحمام والمسجد والمطعم وشغل البيطار وغير ذلك من الضروريات والكماليات. وتصميم خان المدينة، بشكلٍ عام، لم يتغير على مر العصور. فأخذ تخطيط صحنٍ مركزي مكشوفٍ يتوسطه حوضٌ. وتحيط بالصحن بوائك أُقيمت الدكاكين تحتها، لُتبقى أبوابها محميةً من الحر صيفًا ومن المطر شتاءً. ومن الناحية الإدارية، قد يكون الخان مؤسسةً دينيةً مرتبطةً بوقفٍ يحُول ريعه لصيانة مدرسةٍ أو مسجدٍ أو إطعام مسكينٍ أو فقيرٍ. كما كان الحال بالنسبة لخان قيسارية صيدا (قيصرية) أي خانَ الحرير الجاري في أوقاف أحمد كجك باشا العائد ريعها للحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد كانت هذه القيسارية تعرف أحيانا بقيسارية طنطش نسبة إلى ناظر وقفها آنذاك الشيخ محمد طنطش.[19]

كما اشتهرت الخانات بواجهاتها المزُينة بزخارف جميلةٍ ومداخلها القوسية الضخمة التي كانت تُغلَق بواسطة مصرعي بابٍ خشبيّ مصفح بالحديد والنحاس. وأصبحت أكثر باحاتها مسقوفة بالقباب والعقود. بينما كانت خانات الطرق تمثل المحطات الحساسة على مفارق الطرق ومجاري المياه ومراكز الحدود،

---

[17] أميرة جبر: الرحالة الفرنسيون في موطن الأرز. دراسات وإنطباعات عبر القرن التاسع عشر (1788-1918)، مطبعة خليفة. بيروت، 1993، ص 340

[18] عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، مرجع سابق، ص 122

[19] طلال المجذوب: تاريخ صيدا الاجتماعي 1840-1914، مرجع سابق، ص 283.

لذلك احتلت خانات المدُن مداخل المدن، خارج السور أو داخله أيام السلم وفي قلب الأسواق وجوار الحمام والمسجد.

ويبدو أن هندسة الخان في الجبل كانت تختلف عنها في المدينة. هذا ما أكده الكونت دي باراديو (de Paradieu) حين أشار إلى أن الخان في المدينة «يتألف عادة من ساحة تحيط بها عدة أروقة مصوَّنة، ومن طبقتين: واحدة سفلية مخصصة للمخازن والإسطبلات، وثانية علوية، تتألف من عدة غرف ذات شرفات... أما الخان في الجبل، فما هو بنظره، إلا عبارة عن أكواخ حقيرة سوداء قذرة تعج بالحشرات، ويتكدس فيها البشر فوق البهائم.... أما الجدران، فيراوح ارتفاعها بين سبعة أو ثمانية أقدام. وهي مكسوة بقطع من الخشب المصقول. فيما كان السطح الذي هو عبارة عن رزمة من الحطب الجاف، يرتكز إما على عمود واحد أو اثنين... وهناك غرفتان متشابهتان كان يشغلهما عربي أو اثنان، كانت توكل إليهما مهمة استيفاء الرسوم المتوجبة على النزلاء، فضلاً عن بيع القهوة والفطائر للقوافل التي كانت تمر من هناك... ويشير ... أخيراً إلى أنه لم يكن للخدم والعبيد والمكارين والأحصنة مكان في الداخل، بل كان عليهم المبيت في الهواء الطلق خارج الخان".[20]

بينما عرفت مدينة بيروت في نهاية القرن التاسع عشر الخانات التي شغل بعضها "بناية كبيرة ضخمة ذات طبقات بعضها فوق بعض وغرف متعددة يستعمل قسم منها مكاتب لأعمال متنوعة، وآخر مساكن كخان أنطون بك المشهور القائم في أقصى الجانب الشمالي من بيروت. وخان فخري بك في الجانب الغربي. وخان تابت لصيق هذا الخان من جهته الشمالية. وخان البربير في وسط سوق القزاز (الزجاج) المشهور قديماً.[21]

ولقد كان يُطلق على بعض الخانات المتصلة بالتجارة اسم "قيسارية" كقيسارية الحرير (القيسارية العتيقة) التي بنتها الأميرة أم دبوس زوجة الأمير أحمد شهاب، وقيسارية الصباغة التي بناها الأمير علي شهاب، وقيسارية الأروام التي بناها

---

[20] أميرة جبر: الرحالة الفرنسيون في موطن الأرز...، مرجع سابق، ص 340

[21] فؤاد خوري: من مشارف المئة، لبنان: وجوه حضارية، مرجع سابق، 401

الأمير يوسف شهاب، ومن ثم تحولت إلى خان بسترس، وقيسارية الشيخ عبد السلام عماد، وقيسارية البارود التي بناها الأمير سليمان اللمعي.[22] بالإضافة إلى قيساريات دير القمر وصيدا وصور وزحلة و طرابلس والبترون... وغيرها. والقيسارية "...كانت تشتمل على مخازن ودكاكين أكثرها على النمط العربي، أبوابها تعلو عن أرضها بمتر تقريباً تُستعمل كشرفة ناتئة يجلس عليها التاجر متربعاً ومثله الخياطون والحدادون وبائعو الأقمشة، وهي قائمة بين الأسواق التجارية. أما تلك الأسواق فكان أغلبها ضيقاً وملتوياً لا يصل إليه أشعة الشمس إلا قليلاً. وفوق تلك المخازن والدكاكين كانت طبقة واحدة من المساكن وقل أن زادت عن طبقتين، سقوفها من الخشب القطراني المسمى كريش مستندة على جسور خشبية ضخمة إذا كانت وسيعة، وسطوحها من الحجرية المسماة "عدسة" وهي تمنع تسرب المياه إلى الداخل إذا أُتقن صُنعها، وتتألف من بحص ناعم يؤخذ من شواطئ الأنهر، ومن رمل أبيض فكلس عربي يصير جبله، ومدّه بسمّاكة عشر سنتيمترات على طبقة من فضلات الحجر الرملي وغير الرملي تدعى نحاته، وخطبه جيداً مدة يومين بمخباط خشبي"[23] وكان بعض الخانات عظيم الاتساع كخان التماثيلي في طرابلس الذي تم بناءه في عهد المماليك، ثم جدد بناءه الوزير العثماني محمد الدفتردار في عهد السلطان سليم الأول، ويشغل مبنى هذا الخان مساحة سطحية تقدر بـ2202 متراً مربعاً، ويتألف من طبقتين(طابقين)، هما: الطبقة الأرضية التي تضم 31غرفة كان يستعملها التجار كمكاتب لتجارتهم وأماكن لإيواء دوابهم، وتتصل بالطبقة الثانية بواسطة ثلاثة سلالم، حيث تتوزع نحو 44 غرفة مخصصة لإقامة التجار ومبيت الوافدين من الأماكن البعيدة.[24] ولكن هذا الخان لم يصل إلى اتساع خان الجمُرك في حلب الذي يعود تاريخه إلى عام 1574م. فقد ضم هذا الأخير، اثنين وخمسين مخزنًا، وسبعًا وسبعين غرفة وسوقين مبنيين بالحجر المهُندَم، يصل إليهما الضوء من قببٍ عشر تعلوها. وكان مجموع دكاكينه

---

[22] الأب لويس شيخو: بيروت تأريخها وآثارها، منشورات دار المشرق، بيروت، طبعة ثالثة، 1963، ص 126

[23] فؤاد خوري: من مشارف المئة، لبنان: وجوه حضارية، مرجع سابق، ص 400

[24] نعيم عصافيري: خانات طرابلس تحّول بعضها مستودعات وتّهدم البعض الآخر. تحقيق نشر في جريدة "النهار البيروتية"، الأحد في 14 تشرين الأول، ص 13

ثلاثمائة وأربعة وأربعين، وإلى جانبها سبيلان ومسجد[25]، ...الخ.

ولعل أشهر خانات لبنان في القرن التاسع عشر، كان الخان الفرنسي(الإفرنج) في صيدا. فهذا الخان الذي بناه الأمير فخر الدين الثاني في أوائل القرن السابع عشر، في حدود عام 1620م. أي بعد عودته من منفاه في إيطاليا عام 1618م. كانت مساحته تبلغ حوالي خمسة آلاف متر مربع، ويتوسطه صحن مربع الشكل، في وسطه حوض تحيط به الأشجار، ويدور حول الصحن أربع محنيات كل منها يتألف من سبعة عقود منكسرة ومرتفعة مكوِّنة البوائك(أمكنة إيواء الدواب) التي تطل على غرف وتسند ما بين العقود ركائز مستطيلة الشكل تنتهي من أعلى بمسطحات مائلة، كما وصفه عام1880م، لورته (L.Lortet)، متابعاً بقوله بأنه عبارة عن "مساحة مربعة فسيحة قياس جنبها، مائة وخمسون قدماً، وتحيط بها قناطر عالية ذات قباب، وفيها حوض أنيق من الرخام، تصل إليه المياه من أحد الينابيع المجاورة وتظلله أشجار باسقة من أشجار البلاد الحارة، وشجرات موز كبيرة. وكان هذا الخان الواسع يحتوي وكالة قنصلية فرنسا، ودير للآباء الفرنسيسكان، ومدرسة إبتدائية، وفيه نزل (فندق صغير) ومخازن، ومستودعات للبضائع، ومرابط للخيول وغيرها"[26]

ويلي خان الإفرنج شهرةً خان الخياطين في طرابلس المعروف أيضاً بخان الحريريين الذي يعود إلى العصر المملوكي. وكما يدل اسمه، فهو مخصص للخياطين، ويقال إنه بني على بقايا مبنى صليبي مما يزيد من أهميته تاريخياً. ويتميز بتصميم مختلف فهو كناية عن شارع مقفل. وخان المصريين الذي أقيم على ما يبدو في النصف الأول من القرن 14 للميلاد ويتألف من فناء تتوسطه بركة ماء وتحيط به طبقتان، خصصت السفلى منهما للبهائم والبضائع، فيما خصصت العليا للنزلاء. وتطل هذه الغرف على الفناء من خلال أروقة معومدة. وخان الصابون الذي يتميز بأنه الوحيد الذي لا يزال يحتفظ ببابه الأصلي المصنوع من الخشب، كما لازال حتى اليوم محافظاً على وظيفته في إنتاج الصابون الفاخر وتسويقه. وهناك خان العسكر الذي

---

[25] عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، مرجع سابق، ص142

[26] لويس لورته: مشاهدات في لبنان، فصول عن لبنان من كتاب «سوريا اليوم»، نقلها إلى العربية وعلق حواشيها كرم البستاني، ضمن سلسلة مباحث أجنبية في تاريخ لبنان، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، بيروت، 1951، ص 98، وأميرة جبر: الرحالة الفرنسيون في موطن الأرز....، مرجع سابق، ص339. وانظر الصورة الملحقة رقم2.

بُني في عصر المماليك أواخر القرن 13 بهدف استعماله كثكنة للجيش مما يفسر اسمه. وهو من أكبر الخانات في طرابلس ويتميز ببنائه الذي يتألف من مبنيين.[27]

وهكذا بُني الخان ليضم مستودعات لحفظ البضائع وإسطبلاتٍ مختلفةً لإيواء العربات وأنواع الحيوانات التي لا تتجانس في الزرائب عادةً. حيث كانت الخيول، مثلاً حسب رأي المكارين وأصحاب مهنة البيطرية، تأنف من روائح الإبل. والبغال لا تسكن مع الحمير. وكانت الإسطبلات مجهزة بلوازم إصلاح المركبات ومعدات البيطرية للعناية بالدواب ورعايتها. وإلى جانب تلك المرافق والخدمات، هناك الحوض للمياه في وسط الصحن ومشرب البهائم، والفرن والمصُلى، وكذلك في بعض الخانات الحمام.

وظيفة الخان الاقتصادية

كان الخان، يعتبر من المؤسسات العامة التي أنشئت في مستهل القرن السابع عشر، لأغراض تجارية، ثم اتسعت أهدافها فيما بعد، لتشمل مهمات سياحية وسياسية وصناعية.[28] من هنا كانت وظيفة الخان في المدينة استقبال التجار بشكلٍ عام، من باعة الجمُلة ومُروجي البضائع ومراسلي المستوردين والوسطاء. وفي هذا المكان كان يتم البيع والشراء، وكأن المكان لم يعد فقط، لإيواء المسُافرين بل لاستقبالهم ريثما يقومون بأعمالهم التجارية. وكما كان لكل بضاعةٍ دار، صار لها أيضاً خانٌ يرتبط اسمه بها: كخان الحرير في سد البوشرية؛ وخان الرز وخان الزيت وخان الحمص وخان قيصرية الحرير(القيسارية) في صيدا[29]،وخانات الصابون والبطيخ والقطن والدبس والخشب والدباغة والبصل والحرير والرز والرمانة واللوبيا(اللوبياء)، والعدس، والزيت، في طرابلس[30]، وخان الحرير، وخان الصاغة، وخان الملاحة، وخان الشونة، وخان الموسيقى، وخان

---

[27] نعيم عصافيري: خانات طرابلس تحّول بعضها مستودعات وتّهدم البعض الآخر. تحقيق نشر في جريدة "النهار البيروتية"، الأحد في 14 تشرين الأول، ص 13

[28] أميرة جبر: الرحالة الفرنسيون في موطن الأرز....، مرجع سابق، ص 339

[29] طلال المجذوب: تاريخ صيدا الاجتماعي ...، مرجع سابق، ص281-182

[30] سميح الزين: تأريخ طرابلس قديماً وحديثاً....، مرجع سابق، ص 237-238

البيض، وخان القمح في بيروت[31]، وخان بودخان على طريق بيروت- دمشق[32]، وخان الحبالين في دمشق، وخان الجوخ في إستانبول، وخان الزيت وخان الحرير في حلب ...الخ. أو نسبة لأسماء بعض المهن: كخان الخياطين، والصاغة، والمنجدين، والمصريين أو العجم والعسكر، والأسرى في طرابلس. أو بالنسبة لأصحابها والقيمين عليها: كخان الإفرنج في صيدا نسبة إلى التجار الفرنسيين، وخان الحسين نسبة إلى الشيخ حسين تلحوق، وخان الشيخ محمود(محمود بو عزالدين) ، وخان مزهر نسبة إلى المقدم علي مزهر من حمانا وخان زهير وخان مراد على طريق دمشق الشام -بيروت[33]، وخانات أباظة وكتافاكو وبرتران واليهود وأبو شاقة في صيدا[34]،وخانات البربير، وأنطون بك(أنطون بك نجار أحد كبار التجار البيروتيين)، وحمزة وسلوم(وهو الخان الذي بناه أحمد حمزة سنو وشريكه الياس سلوم)، وسعيد آغا، وشيخ المكارية، وخان السيد، وخان فخري بك، وثابت، وخان الحلاج في بيروت[35]، وخانات المهندس، وبدور، والجاويش أو الشاويش، وميلاد، وعلوش، والعبد، والدبليز في طرابلس، أو بالنسبة لموقعها: كخان الجمهور وعين صوفر والمديرج وخان الغفر، وخان المريجات وخان المصنع وخان الجديدة وخان ميسلون والديماس والهامة وغيرها التي كانت تتوزع على امتداد طريق بيروت- دمشق القديمة[36]، وخانات جونية وعبيه والبترون والهري والنبطية وخان السهل والتبانة والبوابة الفوقا، وغيرها الكثير الكثير مما يصعب إحصاؤه بسبب اندثار أثره، وغياب الذاكرة التاريخية. وأخيراً، لا بد من الإشارة هنا إلى أن الخان لعب دوراً بارزً في التجارة اللبنانية إبان الحقبة العثمانية ولاسيما بعد إنشاء مرفأ بيروت وشق طريق بيروت-دمشق، وتنامي حركة التجارة المحلية والمتوسطية.

---

[31] عصام شبارو: تاريخ بيروت منذ آقدم العصور ....، مرجع سابق، ص 176-179

[32] مصور خريطة خانات طريق بيروت-دمشق، مصدر سابق، وثيقة 1

[33] المصدر السابق، وثيقة رقم1

[34] طلال المجذوب: تاريخ صيدا الاجتماعي ...، مرجع سابق، ص281

[35] عصام شبارو: تاريخ بيروت منذ أقدم العصور ....، مرجع سابق، ص 176-179، وفؤاد خوري: من مشارف المئة، لبنان: وجوه حضارية، مرجع سابق، ص399-404، وحسان حلاق: بيروت المحروسة ....، مرجع سابق، ص 95-96.

[36] مصور خريطة خانات طريق بيروت-دمشق، مصدر سابق، وثيقة رقم1

فقد كان مركزاً سياحياً وتجارياً في آن واحد. وفي هذا المجال أرخ المستشرقون الفرنسيون للدور الكبير الذي لعبه الخان الفرنسي في صيدا على صعيد نشر تجارة فرنسا في الشرق، حيث " يذكر الأب غودار(Goudard) في تلك الحقبة، أن الخان الفرنسي (الإفرنج) ما هو إلا نموذج عن تلك المؤسسات التجارية التي أنشأها باعة مرسيليا في القرن السادس عشر في جميع مدن الشرق الرئيسة. ففيه كانت، حسب قوله، تتكدس منتجات آسيا وأوروبا، وإليه كانت تجلب القرويات الحرير والصوف وخيوط الغزل، فضلاً عن البضائع التي كانت تقلها السفن الفرنسية الأربعون التي كانت تصل صيدا كل سنة. ويخلص الأب المذكور إلى القول: «إن سوق الخان كان يفتح فقط يومي الاثنين والثلاثاء من كل أسبوع وفي الليل كانت مفاتيح البابين الضخمين المخصصين لدخول العربات، تسلم إلى القنصل الفرنسي..." والخان الفرنسي، على حد قول السائح داكين (Dakin) أشبه بسوق تجارية تتكدس فيها كل منتجات فرنسا المحلية، ومنها كانت تنقل إلى جميع المناطق السورية العثمانية الأخرى. ويؤكد الأب بوراسه(Bourasse) إن هذا الخان كان منذ القدم مركزاً حيوياً للتجارة الفرنسية. أما السائح دي سالفرت (de Salveste)، فيعطينا صورة أوضح عن الوضع التجاري في هذا الخان، ذاكراً " أن فناءه الداخلي كان محاطاً بمخازن تحوي جميع الأصناف التجارية كأكياس القمح والسمسم، وأكداس الصوف والقطن، فضلاً عن صناديق الفاكهة المنوعة. مؤكداً أنه كان بمثابة نزل وإسطبل في آن واحد، إذ كان المسافرون قادرين على نصب خيامهم، وربط جيادهم في الداخل».[37] وكان الخان يقسم إلى خانين:

الخان الكبير، وهو بناء أرضي مستطيل مع ممر داخل القناطر حيث تقوم معارض التجار، وفي الطابق العلوي من الخان، المخازن وغرف نوم التجار والملاحين، وكان ينزل في هذا الخان التجار الفرنجة من مختلف المذاهب من يسوعيين وعازاريين وكبوشيين وفرنسيسكانيين. والخان الصغير، يقع إلى الجنوب الغربي من الخان الكبير ويتصل مباشرة بالبيت القنصلي. و "في خان الحرير في بيروت كان يتم وزن الحرير علانيةً، ويحُدد في اجتماع يضم التجار وأكبر مربي دود القز(الحرير)

37 أميرة جبر: الرحالة الفرنسيون في موطن الأرز....، مرجع سابق، ص 312

برئاسة معتمد الحكومة العثمانية سعر الحرير المُنتج محلياً أي الحرير البلدي الجيد والمحلول على الطريقة العربية، ويُدعى السعر "المحدد بالميزان".[38] كما، نجد العديد من الخانات التي أقيمت إلى جانبها قلاع أو أبراج للمراقبة، كما استعملت بعضها كمحطات لعابري السبيل ولجباية الضرائب وضبط المهرب من الحرير والدخان والملح، كما حصل عامي1271و1272هـ/1854و1856م ، عندما صادر رجال الجمرك(الكمرك) العثماني كميات من الدخان(التوتن) والحرير المهربة وحجزها على التوالي في خاني عبيه[39] وجونيه من أعمال جبل لبنان. أو كان الخان جزءاً من جهاز البريد في السلطة العثمانية. وفي بعض المدن والقرى والمحطات الأساسية، تحولت الخانات البلدية إلى ما يشبه السوق التجاري وإلى مخازن للبضائع والحيوانات.

وهكذا مع نمو مدينة بيروت في القرن التاسع عشر وازدياد عدد سكانها من خمسة آلاف عام 1815 إلى 80 ألف عام 1880[40] ....، وإنشاء وتوسيع مرفأها التجاري، بالإضافة إلى شق طريق بيروت – دمشق(الكروسة) للعربات، تطورت حركة التجارة ونمت عمليات تبادل السلع والبضائع والحبوب بين الداخل اللبناني والخارج السوري والعثماني برا، والأوروبي والمصري بحراً، إلى جانب تنامي حركة الهجرة اللبنانية السورية إلى الديار المصرية والعالم مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كل ذلك تطلب تأمين الأماكن الآمنة والمريحة للمسافرين والمتنقلين على الطرقات العامة، وللتجار وسلعهم التجارية بانتظار تصريفها وبيعها في الداخل العثماني أو تصديرها إلى الخارج. لذا نشأت الخانات وتوسعت عدديا، وغطى انتشارها مختلف المناطق اللبنانية ساحلاً وجبلاً وسهلاً. وكانت على نوعين: النوع الأول أقيم على طُرُق السفر خارج المدُن الرئيسة كبيروت وطرابلس وصيدا وصور، وبخاصة على طريق بيروت-دمشق، حيث كان هذا النوع من الخانات

---

[38] دومينيك شوفالييه: مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية الأوروبية، مرجع سابق، ص 398

[39] سليم حسن هشي: سجل محررات القائمقامية النصرانية في جبل لبنان، منشورات المديرية العامة للآثار، قسم الدراسات التاريخية، مخطوطة رقم 25-62، الجزء الأول، بيروت-لبنان 1974-1975، ص 66، والجزء الثالث، بيروت 1977-1978، ص 74.

[40] لويس لورته: مشاهدات في لبنان...، مرجع سابق، ص 46.

يمثل المحطات الحساسة على مفارق الطرق ومجاري المياه ومراكز الحدود. أما الثاني فأنشئ عند مداخل المدن وفي أحيائها السكنية، وغالباً في جوار الحمام والمسجد، وقرب المرافق التجارية كمحطات القوافل والموانئ البحرية.

ولكن، لم يبق من كل تلك الخانات إلا عدد قليل، واقتصرت خدماتها على استعمال مستودعاتها ودكاكينها من قبل مستأجرين، لا تجمعهم إلا نادرًا تجارةٌ مشتركةٌ أو مِهَنٌ واحدةٌ، وربما سكنت غرفها المتداعية عائلاتٌ فقيرةٌ كما هي الحال في خان الرز في صيدا حيث يسكن اللاجئون الفلسطينيون. وهذا ما ينطبق على طرابلس أيضاً.

ومع تطور المجتمعات المشرقية صناعيا وتكنولوجياً وتجارياً، وبعد شق الطرقات المعبدة وإقامة سكك الحديد، أصبحت الخانات تُتفي شيئاً فشيئاً، ليحل مكانها ما سُمِّي آنذاك ب "النزل"، أي المكان الذي ينزلون به للمبيت لليلة واحدة أو ليلتين وأكثر. كما ظهرت السيارات والشاحنات والطائرات التي حلت محل الجمال والخيول وقصرت المسافات بين الولايات التي أصبحت بدورها دولاً ذات سيادة وحدود، أو أضحت محافظات ومقاطعات من دول، وسكانها يحملون البطاقات الشخصية وجوازات السفر، فانقرضت بذلك الخانات وتبعها النزل وحلت مكانها الفنادق، واقتصرت الخانات على الطرق العامة والمناطق النائية. وهذا ما جعل الدول تسعى وتعمل على فتح مدارس ومعاهد خاصة لتدريس ما يسمى بالفندقية التي أصبح لها شهادات دراسية عالية للتخصص بها، ككليات ومعاهد السياحة والفندقة في الأردن ولبنان وغيرهما من دول العالم.

بعض الاستنتاجات

لقد كثرت الخانات في المدن اللبنانية الكبيرة كصيدا وطرابلس والنبطية وبعلبك، وجونية وزحلة والبترون وغيرها خلال القرن التاسع عشر، وكانت بمنزلة الفنادق الصغيرة أي اللوكندات عند الغربيين[41] ينزل فيها الغرباء عن المدن من التجار والمكارية، وعابري السبيل، وبعض طالبي الهجرة إلى الخارج. ولكن

[41] فؤاد خوري: من مشارف المئة، لبنان: وجوه حضارية، مرجع سابق، ص399

هذه الخانات ما عدا خان الإفرنج في صيدا، وخان أنطون بك، وخان فخري بك، وخان تابت في بيروت لم تستهوِ المستشرقين الأوروبيين ولا تجارهم ومرسليهم التبشيريين الذين استعاضوا عنها بالأديرة والأبنية الكنسية التي استقبلتهم بحفاوة وأكرمتهم بحسن ضيافتها، والتحدث بلغاتهم.

بينما كان المسافرون الشرقيون ينامون في الخانات التي لا تحتوي على أثاث وفرش، فيضطرون إلى حمل حوائجهم معهم ليتمكنوا من الإقامة في هذه الخانات، التي انتشرت في بيروت بكثرة حتى وصلت إلى أكثر من ثلاثين خاناً، مثل: خان شيخ المكارية، وخان السيد، وخان البربير، وخان حمزة وسلوم ، وخان الشونة، وخان أنطون بك، وخان فخري بك، وخان ثابت، وخان الأروام، وخان سوق الطويلة، وخان الحلاج، وخان الحرير، وخان التوتة، وخان سعيد آغا، وخان الصغير، وخان الموسيقى، وخان النورية، وخان البيض، وخان الكنفاني، وخان الدركة، وخان الصاغة، والخان القديم، وخان الحلواني، وخان سيور، وخان السادات بيهم، وخان الوحوش، والخان الصغير، وخان الأمير أمين، وخان الدباغة، و خان الملاحة، وخان بسترس...، وغيرها مما اندثر أو لم نتوصل إلى إحصائه. وكان في مدينة صيدا مع نهاية القرن التاسع عشر حوالي خمسة عشر خاناً، هي: خان الإفرنج وخان الرز وخان الحرير وخان الزيت وخان القشلة القديمة وخان المطرانية وخان الشاكرية، وخان الفاخورة، وخان البوابة الفوقا، وخان الجسر الأولي على مدخل علمان، وخان أباظة وخان كتافاكو وخان برتران وخان اليهود وخان أبو شاقة...

وتعتبر خانات طرابلس الأثرية مقصد السياح وخصوصا علماء الآثار وذلك لأنها تقع في وسط المدينة، وهي من خلال عددها الذي يفوق على العشرين خاناً، أو من حيث مساحتها، تبين أهمية التجارة وخصوصاً الأهمية الاقتصادية لهذه المدينة، وهي: خان الخياطين، وخان المصريين أو العجم، وخان دار الوكالة، وخان المهندس، وخان العسكر، وخان التماثيلي، وخان العبد، وخان الصابون، وخان بدور، وخان الجاويش أو الشاويش، وخان البطيخ، وخان الزيت، وخان ميلاد، وخان علوش، ...، وخان الرمانة، وخان الدبليز، وخان التبانة، وخان البصل، وخان لوبية أو لوبيا، وخان الأسرى بمحلة اليهود، وخان سندمر، وخان الحراج.

ولا ننسى أن الخانات لعبت دوراً هاماً في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين ولايات

وألوية بلاد الشام، وأسهمت ولاسيما في المدن الأساسية، بقيام حركة عمرانية وتراثية، ونهضة حرفية-

صناعية وتجارية، حيث نشأت بجوار الخان الأبنية السكنية التراثية والدكاكين والقيساريات والمستودعات والمطاعم، والقنصليات ووكالات التجارة المحلية والأجنبية. أما خارج المدن، فأمست محطات تجارية ومراكز جمركية وأمنية كان الخفر على طريق دمشق-بيروت، وبعضها محطات لسكة الحديد بعد اعتمادها في بلاد الشام، كخان مزهر على طريق ضهر البيدر، وخان الوروار في بين كفرشيما والحدث، قرب صيدا، وخان الفاخورة في صيدا، والخان الجديد بين الشويفات وبرج البراجنة على نهر الغدير، على سبيل المثال.

وأخيراً، لقد أهملت وتهدمت معظم خانات طريق الشام (أي طريق بيروت دمشق)، ولم يبق من الخانات الأخرى في بيروت وصيدا وصور وطرابلس وغيرها من المناطق اللبنانية إلا عدد قليل، اقتصرت خدماتها على استعمال غرفها كمستودعات تجارية وحرفية ودكاكين، أو ربما سكنت فيها بعض عائلات فقيرة. كما يجري حالياً في صيدا بحث تقيم عائلات من اللاجئين الفلسطينيين إلى لبنان منذ العام 1948م، وفي طرابلس هي بمعظمها أماكن سكنية للعائلات الطرابلسية الفقيرة أو المهجرة من مناطق الاشتباكات المسلحة في بعض الأحيان.

لذا المطلوب إعادة ترميم الخانات الحالية وبناء الخانات المهدمة إحياء لأهميتها التراثية والعمرانية

ولدورها الاقتصادي السابق في إرساء التواصل التجاري والثقافي بين مختلف مكونات المجتمع العثماني الحضارية في بلاد الشام. كما يمكن إيلاء دراستها التاريخية والتراثية والعمرانية أهمية خاصة، وذلك لما تُتزن من ذاكرة تاريخية مشرقة في تاريخ الحكمين المملوكي والعثماني لبلاد الشام، ونهضتهما

الاقتصادية بانفتاحهما على البلدان الشرقية والغربية على حدٍ سواء.

الوثيقة والصور الملحقة:

الوثيقة: -مصور خريطة خانات طريق بيروت- دمشق، سالنامة ولاية سورية محرم 1298ه/ كانون

الأول 1880م، وشوال 1309ه/أيار 1891م.

ملحق رقم (1) خان الإفرنج في صيدا.

ملحق رقم (2) خان الصابون في طرابلس.

ملحق رقم (3) خان الرز في صيدا.

ملحق رقم (4) خان قيسارية الحرير في سد البوشرية قرب بيروت.

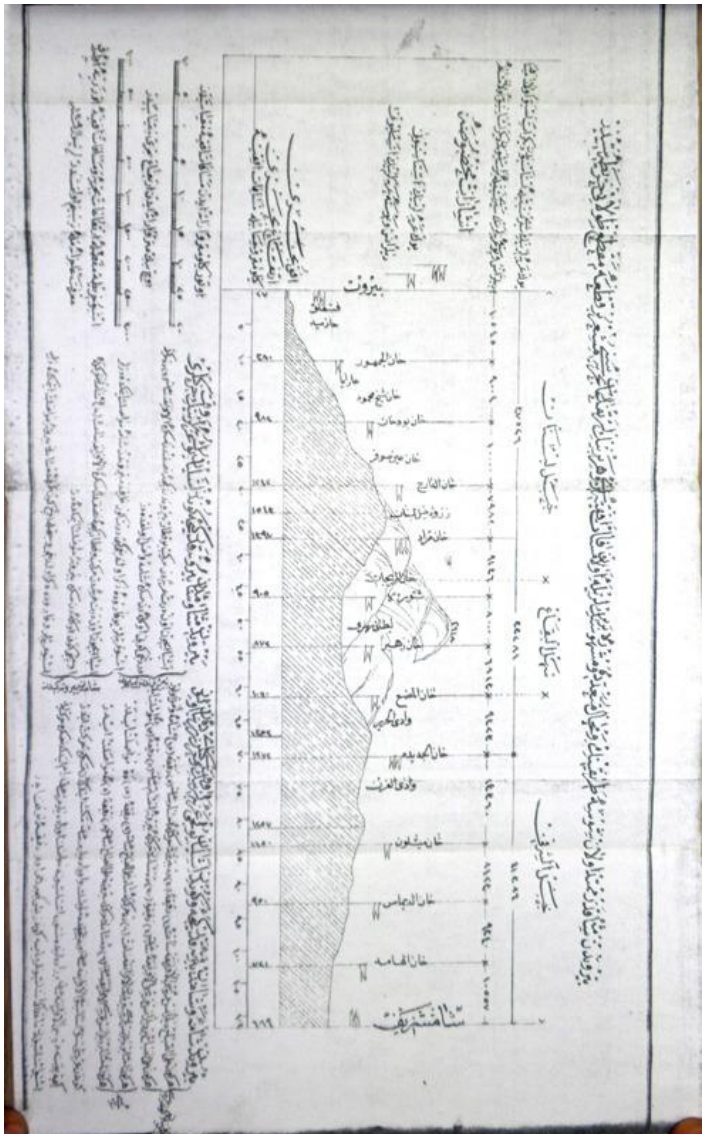

مصور خريطة خانات طريق بيروت- دمشق، سالنامة ولاية سورية محرم 1298ه/ كانون الأول 1880م، وشوال 1309ه/أيار 1891م.

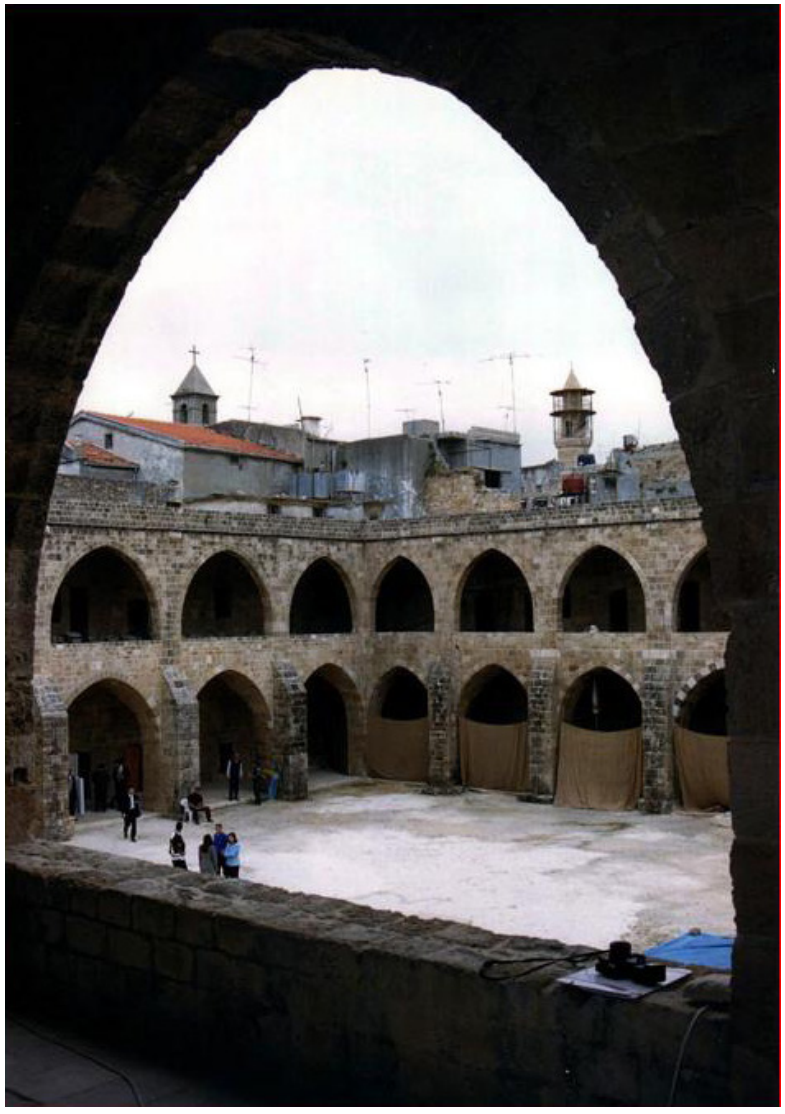

ملحق رقم (1) خان الإفرنج في صيدا.

ملحق رقم (2) خان الصابون في طرابلس.

ملحق رقم (3) خان الرز في صيدا.

ملحق رقم (4) خان قيسارية الحرير في سد البوشرية قرب بيروت.

مظاهر الحضارة الإسلامية في مملكة كانم حوض بحيرة تشاد

د. ابن عمر عمر عبيدالله*

دخول الإسلام إلى السودان الأوسط

عرفت منطقة بحيرة تشاد عند المؤرخين والجغرافيين العرب في القرون الوسطى باسم السودان الأوسط. وقد تعرضت المنطقة من جبال تبستي شمالا إلى بحيرة فتري جنوبا خلال العشرين ألف سنة الماضية لتغيرات مناخية مذهلة كانت لها آثار كبرى على حياة الإنسان فيها. فالطرف الشمالي من المنطقة كانت تغطيه بحيرة تشاد الكبرى- بحجم بحر قزوين – وكانت تمتد إلى مرتفعات تبستي ثم حدثت تحولات كبرى في المناخ في حدود سنة 3000 قبل الميلاد تقلصت بسببها مساحة البحيرة وتأثرت المنطقة بالتالي من حيث النباتات والحيوانات[1]

يقر الكتاب الفرنسيون في الوقت الحاضر أن أول اتصال معلوم تاريخيا بين المجتمع الشادي واللغة العربية تم في القرن السابع الميلادي وبالتحديد عام 666/667م عندما وصل عقبة بن نافع إلي جبال كوار تبستي وهي منطقة تابعة لمملكة كانم في تلك الآونة ومن هذا الاتصال انسابت الثقافة العربية مع الانتشار الطبيعي للإسلام نحو بحيرة شاد[2]

---

* أ. مشارك – قسم التاريخ- كلية الآداب جامعة إفريقيا العالمية

[1] أمين توفيق الطبيبي ، كانم - برنو بالسودان الأوسط، مجلة البحوث التاريخية س 10 ع 12 ليبيا ، يوليو 1987م ، ص 71

[2] محمد صالح ايوب "مكانة اللغة العربية في المجتمع الشادي المعاصر ، مجلة دراسات إفريقية ع 11 مركز البحوث والترجمة ، جامعة إفريقيا العالمية ، يناير 1996م ، ص 136

ولكن رغم ذلك يرى البعض أنه في اواسط القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) اعتنق الملك السيفي الإسلام ومنذ ذلك التاريخ كان جميع ملوك السفيين وأباطرتهم الذين حكموا كانم – برنو نحوا من ثمانية قرون مسلمين[3]

ولعل السبب الاساسي الذي جعل الكتاب الأوربيين يؤرخون لإتصال هذه المنطقة بالحضارة الإسلامية، (إنما هو تكون ممالك وإمبراطوريات إسلامية تناسب هذا التاريخ بل أن (بولم) في كتابه عن الحضارات الإفريقية يعترف صراحة (بأن الأوربيين يجهلون كل شيء عن هذه المنطقة حتى القرن الحادي عشر[4] وقد شهدت بلاد السودان الأوسط قيام عدد من الممالك الإسلامية مثل كانم - برنو وباقرمي ووداي ودويلات الهوسا.

كانم

كان الجزء الأكبر من أقليم بحيرة تشاد تحت سيطرة مملكة كانم العظيمة في القرن الثاني عشر وعرف الرحّالة والجغرافيون العرب مملكة كانم في وقت مبكر وتعدت شهرة المملكة بكثير شهرة الكيانات السياسية الأخرى الواقعة فيما بين نوبة وادي النيل والكاو كاو المقيمين في منعطق النيجر[5] .

وكانت هنالك سلالات مختلطة من التبو والزغاوة والكانوري كانت تسكن شرق بحيرة شاد تعرضت لهجرات من الشمال والشرق ونتيجة لهذه الهجرات ظهرت أول أسرة حاكمة سيطرت على المنطقة الواقعة شرق بحيرة شاد وأسست دولة كانم في بداية القرن التاسع الميلادي وتوسعت خلال القرن الحادي عشر وبلغت أوج مجدها في القرن الثالث عشر ثم اصبحت مقاطعة في نطاق دولة برنو لكن قوتها تدهورت في القرن السابع عشر الميلادي[6] .

---

[3] نقولا زيادة ، إفريقيات ، ط 17 ، يناير 1991م ، ص 346

[4] محمد صالح أيوب ، جماعات التحديث الاجتماعي في وسط إفريقيا ط(1) دار المعرفة ، القاهرة 1991م ، ص 126

[5] ديرك لانجي : ممالك تشاد وشعوبها " في المجلد الرابع من تاريخ إفريقيا العام اليونسكو ، ص 247

[6] سالم محمد المعلول ، نماذج من الرسائل المتبادل بين كانم ، برنو وطرابلس الغرب في القرن التاسع عشر ، في المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات ، ليبيا ، 1992م ، ص 109

ويعتقد مؤسسو هذه الدولة أنهم ينحدرون من سلالة حميرية تنتسب إلى (سيف بن ذي يزن) البطل اليمني الذي ظهر في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام وتبعا لذلك فقد لقبوا أنفسهم باسم (السيفية) أو السيفاوة ، وتعاقبوا على حكم كانم – برنو لأكثر من ألف عام[7] .

لقد اعطى هذا النسب الحميري دولة كانم – برون أو بالأحرى دولة السيفاويين شرعية قانونية كحامية وركيزة أساسية للدعوة الإسلامية في بلاد السودان – كما يرى البروفيسور أحمد محمد كاني – ومع منتصف القرن الرابع عشر نجد أن الإسلام قد غلب على أكثر مناطق كانم[8] .

لقد اهتم حكام كانم منذ البداية بنشر الإسلام وتكريم العلماء وغقامة العلاقات الدبلوماسية مع الدول المجاورة كالدولة الحفصية في تونس وخاصة في عصر الماي دونامة دبلامي Donama Dabame الذي امتدت دولة كانم في عهده من نهر النيجر غربا إلى نهر النيل شرقا وشمالا إلى فزان وجنوبا إلى الجزء الشرقي من نيجيريا – حاليا – وعمل على تأسيس مدرسة (ابن رشيق) في مصر لفائدة تعليم الطلاب الوافدين إلى مصر من كانم – برنو – وأنها تخصصت في تدريس المذهب المالكي وهو المذهب الذي كان – وما زال – يدين به أغلب سكان السودان الأوسط والغربي كما أسس نزل – داخلية – لسكن الطلاب من بلاد البرنو يسمى برواق البرنو في سنة 1240[9].

وقد عجز سلطان الكانم عن التغلب على البولالا وكذلك فشل ابنه عمر (1394-1298م) واضطر سلطان الكانم نتيجة لذلك الإنتقال من عاصمته – انجيمي- إلى ناحية البرنو الواقعة غربي بحيرة شاد وأصبح سلاطينهم يلقبون من ذلك الحين بسلاطين البرنو[10].

---

[7] ن. م

[8] أحمد محمد كاني ، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا ، ط 1 ، الزهراء للإعلام العربي العربي ، 1987م ، ص . ص 13- 14

[9] ن. م

[10] حسين مؤنس ، الإسلام الفاتح ، رابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة ، ص 157-158

وقد استطاعت دولة (برنو) تحت زعامة السلطان على غازي السيفي أن تخضع البولالا وأن تبسط نفوذها مرة أخرى على المنطقة الواقعة شرق بحيرة شاد وأن توحد كانم – برنو في دولة واحدة عرفت باسم كانم[11] برنو.

منذ القرن الخامس الهجري اهتم الجغرافيون العرب ومؤرخوهم بالجانب الإسلامي في كانم إذ ورد في بعض المصادر : (ومن طوائف المسلمين : غانم – أي كانم – وغانة وكوكو وكوار وفزان)[12] .

إن العامل الأهم في وصول الإسلام إلى الكانم يتمثل في وقوع المنطقة بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان وقد ارتبط ذلك بعمل التجار العرب المسلمين في السودان الأوسط في القرنين الثاني والثالث للهجرة – الثامن والتاسع الميلاديين لاسيما في صحراء فزان وخاصة التبادل التجاري بين مدينة (زويلة) في أطراف الصحراء من جهة المغرب والكانم من جهة ثانية والمتتبع للروايات المتعددة حول وقت وطريقة وإسلام ملوك الكانم يلاحظ إنها جميعا تتفق على شيء واحد وهو ان انتشار الإسلام كان بصورة سلمية في تلك البلاد من غير الحاجة لعمل عسكري إذ كانت التجارة والهجرات المحور الأساسي في ذلك الانتصار فضلا عن جهد الدعاة من أبناء البلاد نفسها[13] .

كما أن الدستور الذي أصدره السلطان (هيوم بن جلمي) (491-478ه - 1085–1097م) يؤكد على أن الإسلام قد انتشر في بلاد الكانم على يد الفقيه (محمد بن ماني) والذي أصبحت ذريته أئمة تلك البلاد[14].

إن المتتبع لتاريخ مملكة الكانم يلاحظ إنها كانت تتسع جغرافيا خلال العصور

---

[11] المعلول، م . س ، ص . ص ، 1092م – 1093

[12] عبدالحي عبدالحق ، حول إنتشار الإسلام في السودان الأوسط، في ندوة العلماء الأفارقة ، الخرطوم ، 1985م ، ص 114

[13] بشار أكرم جميل الملامح ، تاريخ الإسلام في إفريقيا ط 1 ، عمان ، دار الفكر ، 2014م ، ص 164–165

[14] ن. م ، ص 166

الإسلامية وأن الإسلام كان ينتشر فيها على نحو سريع ومنتظم وعند القرن الخامس الهجري / الحادي عشر للميلاد وصلت إلى بلاد كانم بفعل الضغط السكاني الحاصل في المغرب الإسلامي هجرات كبيرة يقودها بني هلال القادمين إلى المغرب والصحراء الكبرى من مصر منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ويبدو أن تلك الهجرة قد أثرت مثل بقية الهجرات التي تحصل في أماكن أخرى على التوزيع السكاني للمنطقة ودفعت السكان الاصليين فيها نحو الداخل بما فيها مناطق فزان والمناطق المحيطة بها[15] .

لقد أشارت المصادر العربية إلى مدى تعلق أهل الكانم وحكامهم بالإسلام ومحبتهم له للحد الذي جعلهم ينتسبون إلى العرب منتسبون للقائد العربي سيق بن ذي يزن لاسيما حاكم الكانم(محمد) الذي ذكر أن جده هو ذلك القائد العربي وأن عاصمة جدوده السيفيين تسمى (مانان) وأن جده الرابع قد اسلم على يد فقهاء المسلمين في الكانم[16].

ويتضح من ذلك أن أنتصار الإسلام في الكانم لم يكن مقتصرا على التجار والمهاجرين بل رافق ذلك جهود كبيرة لدعاة الإسلام وفقهائه والذين توافدوا على المنطقة بروح إسلامية عالية وهو ما أكدته دساتير بلاد الكانم المسماة (المحارم) ففي المحرم الخاص باسرة (مسبعرمة) تلاحظ أن الشيخ محمد بن مسبعرمة بن عثمان الحميري قد وصل إلى الكانم قادما من اليمن على عهد السلطان الكانمي (علي ت 909 هـ - 1503م) والذي استقبله وأكرم وفادته وجعله وزيرا له فضلا عن ذلك فقد وصل في عهد ذلك السلطان عالم آخر هو (أحمد بن بشير) والذي أفاد البلاد بما يمتلكه من علوم.[17]

كما ساهمت قبائل (التيبو) التيدا في أنتشار الإسلام في الكانم لاسيما بعد أن هاجرت من فزان نحو بحيرة تشاد في القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي

---

[15] ن. م ، ص . ص 166- 167

[16] ن. م ، ص 167

[17] ن. م

واستطاعت أن تحقق النصر على قبائل الزغاوة واستقرت في المنطقة بحلول القرن 5 هـ - 11م[18].

المظاهر الحضارية في كانم

بفضل الثقافة الإسلامية استطاعت كانم توسيع حدودها في سبيل نشر دين الإسلام المناطق المجاورة خاصة وأن كانم اعتمدت على نظام إداري عل هذا النحو فقد تم تفسيم إمبراطورية كانم إلى أربعة اقاليم كالآتي :

1) الإقليم الشمالي- مهد الإمبراطورية .
2) الإقليم الغربي – برنو –
3) الإقليم الجنوبي – باقرمي .
4) الإقليم الشرقي - واداي[19] .

ومن مظاهر الحضارة الإسلامية في إمبراطورية كانم النظام العسكري وكان يتولى كل إقليم حاكم عسكري تحت إشراف السلطان الأعظم وكان من أهم المناصب القيادية في النظام العسكري في كانم لقب (كيغامة) أي حاكم الإقليم الجنوبي .

ويلقيه لقب (يريما) اي حاكم الإقليم الشمالي من الإمبراطورية ثم منصب (غلاديما) أي حاكم الإقليم الغربي – ولقب مسطرامة – أي الحاكم العسكري للإقليم الشرقي.

ولم تكن هناك رواتب معلومة لقواد الجيش أو أفاده بل كانوا يمنحون اقطاعات من الاراضي التابعة للدولة بقصد فلاحتها والعيش منها كما كانت الدولة تعتمد على نظام الاقطاع وهذا النظام اعتمد على القبائل العربية البدوية نظرا لمعرفتها

---

[18] ن.م

[19] فضل كلود الدكو ، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم من 600-1000 هـ / 1200-1600م ط(1) منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا 1429هـ - 1991م ، ص . ص 214-219

بركوب الخيل وتربيتها ومعرفتهم بفنون القتال لذا ظهرت الألقاب العسكرية بينهم مثل عقيد المحاميد وعقيد المسيرية وعقيد الراشد وعقيد الرزيقات والعقيد هو قائد الجيش في قبيلته والحاكم العسكري نيابة عن السلطان[20].

ونتيجة للصلات الوطيدة بين امبراطورية كانم والدولة العثمانية في شمال إفريقيا أخذت كانم كثيرا من النظم العسكرية عن الدولة العثمانة الشيء الذي جعل منها اقوى دولة في السودان الأوسط[21].

ومن أهم مظاهر الحضارة الإسلامية في كانم فن العمارة والبناء وسلاطين كانم هم أول من استخدم الطوب المحروق في تنفيذ الطراز المعماري الاندلسي وتوسعوا في بناء المساحد وقصور السلاطين وبيوت الحكام والأمراء فصارت العمارة الإسلامية في إفريقيا تتخذ عدة أشكال مختلفة في البناء وكان أكثرها انتشارا هو الطراز الأندلسي[22].

كما أن الحضارة الإسلامية أحدثت تغيرات في الحياة الاجتماعية والسلوكية لسكان الإمبراطورية فكانت عقيدة الإسلام تنساب من الشمال إلى الجنوب عابرة الصحراء الإفريقية الكبرى تحمل معها التعمير والبناء والعزة والكرامة والرخاء وعليه تنتقل العادات والتقاليد الإسلامية السمحة واللغة العربية فظهر في تلك الإمبراطورية جيل جديد إفريقي التربة والوجود إسلامي التطلع والمصير عربي اللسان والتقاليد[23].

وفي إطار الحضارة الإسلامية كان التعليم في كانم يمارس في المسجد والكتاب والمسيج (الخلوة) ومنازل العلماء وقصور السلاطين[24].

---

[20] ن.م ، ص . ص 221

[21] ن.م ، ص 22

[22] ن.م ، ص 222-223

[23] ن.م ، ص 223-226

[24] ن.م ، ص 227

وهنالك اجماع بين الباحثين على إشتراك الممالك (التشادية) في قواسم عدة منها :

* إتخاذ الشريعة الإسلامية مصدرا للقوانين والتشريعات .
* جعل اللغة العربية اللغة الرسمية في كل مملكة واستخدامها في الدواوين والمراسلات والتعليم.
* إن اللغة العربية أصبحت اللغة العامة للشعب[25].

وكانت لبلاد كانم علاقات قوية بالعالم الإسلامي وهي صلات ذات جوانب ومصالح عديدة تجارية وثقافية وسياسية وبهذه العلاقات حصلت كانم على أرقى الحضارات الإنسانية المعاصرة وهي الحضارة الإسلامية فيسرت لها سبل التقدم والأزدهار[26].

وارتبطت الحضارة الإسلامية بالتجارة والتبادل التجاري بين كانم والعالم الإسلامي ذلك أن طائفة من أهل كانم رحلوا إلى مصر وأقاموا بها واشتركوا في تجارتها الخارجية وخاصة في تصريف المحاصيل السودانية وتجارة البهار القادمة من اليمن والهند والصين واتخذت من مدينة قوص بصعيد مصر مركزا لها واشتهرت باسم (التجارة) الكارمية وكان لهؤلاء التجار الذين اشتهروا بالتقوى والورع فضل كبير في نشر الإسلام في بلاد الحبشة كما امتدت العلاقات التجارية والثقافية مع شمال إفريقيا وخاصة تونس الحفصية وتبودلت الرسائل والرسل والهدايا ومنها سفارة ارسلها الماي عبدالله بن كادي إلى السلطان المحفصي أبي يحيي المتوكل في عام 1373[27].

---

[25] ن. م ، ص319

[26] محمد مدني فضل ، الأبعاد الحضارية للغة العربية في الممالك الإسلامية التشادية ، دراسات إفريقية ع (37) يونيو 2007م- ص161

[27] محمد أمين أبة الأبقاري ، الحضارة الإسلامية في مملكة باقرمي ، أطروحة دكتوراة ، كلية التربية قسم التاريخ ، جامعة إفريقيا العالمية 1424هـ 2003-م، ص 12

وقد ذكر بعض الباحثين بأن المادي عثمان بن ادريس (1392-1425م) قد تعرض لحرب ضارية ضد حاكم الجنوب محمد بن دالاتو كما تعرض لاعتداءات قبائل جذام العربية المستقرة في (حوض بحيرة تشاد) وهي قبائل عرف عنها مساعدتها للبولالا[28].

ولعل ذلك يرتبط بما ذكره أحد الباحثين أنه في حين أن الإتجار بالرقيق كان على ناطق محدود في السودان الغربي حيث كان الذهب السلعة الرئيسية للتصدير فإن السودان الأوسط - وهو خلو من الذهب - كان يتعاطي تجارة الرقيق وكانت زويلة أشهر أسواق الرقيق في الصحراء[29].

غير أن باحثا آخر يخالفه هذا الرأي إذ يرى أنه مهما بلغت قيمة تجارة الرقيق فإن كانم - برنو كانت تدين برخائها إلى غلاتها الزراعية وإلى تربية الحيوانات وتصدير الملح والشب أكثر مما كانت تدين برخائها إلى اتجارها بالرقيق وكان بها صناعات تصدر منتجاتها إلى البلدان المجاورة[30].

ويتعامل أهل كانم بالقماش الذي ينسجونه في بلادهم ويطلقون عليه إسم(دندي) كما يتعاملون بالودع والخرز وقطع النحاس والورق على أساس تسعيرها بالقماش وهذا يوضح مدى القوى التي تتمتع بها ملكة كانم الإسلامية في تلك الفترة[31]

ومن المظاهر الحضارية في كانم - برنو ماجلبه الحج من دور رئيسي في إنتشار الثقافة الإسلامية وخاصة المذهب المالكي السائد في السودان الأوسط إذ تشير الوثائق المحلية إلى رحيل العلماء إلى الجامع الأزهر وحجهم إلى مكة المكرمة

---

[28] جامعة القاهرة الموسوعة الإفريقية مج (2) تقديم رجب محمد عبدالحليم ، مايو 1997م ، ص .ص 198 - 199

[29] ك. مادهو بانيكار ، الوثنية والإسلام تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب إفريقيا (مترجم) ترجمة احمد فؤاد بليغ ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، 1998م ، ص 185م ، هامش 21.

[30] الطيبي ، م . س ، ص 77

[31] ن. م ، ص .ص 77- 78

وتزودهم بالعلوم الإسلامية والثقافية وعودتهم إلى بلادهم وهم أكثر حماسا للعمل من أجل العقيدة الإسلامية ومن أجل نشر الثقافة العربية الإسلامية[32].

كما كانت للحضارة الإسلامية أثرها التربوي وخاصة من ناحية الإصلاح والتهذيب والتقريب بين القبائل المتنافرة كذلك كان لعلماء الدين الإسلامي مكانة سامية في نظر شعوب تلك البلاد ووضع الإسلام الاسس والمباديء العامة والحرية والإخاء والمساواة والتسامع الديني ولم يكن لدعاة الإسلام أدنى قسط من السيطرة أو اللجوء لوسائل الإغراء المادية ولذا تقبل الافارقة الإسلام وتحمسوا له وقاموا بدورهم بنشره[33].

واستمر إنتشار الإسلام وزاد من دخله فيه وكثر بناء المساجد وأصبحت دولة الكانم دولة إسلامية وانتشرت اللغة العربية والعلوم الإسلامية وهاجر إليها العلماء كما أن أهلها سافروا للبلاد الإسلامية لطلب العلم والإزدياد من الثقافة الإسلامية[34].

ويزيد في أهمية تاريخ دولة كانم إنها لم تبلغ ما بلغت من عظمة وقوة وعمر طويل إلا بعد أن صارت دولة إسلامية فقد اصبح الدين الإسلامي بثقافته الراقية عصب قوتها الروحية بل المادية كما صارت العربية لغتها الرسمية في شتى مناحي الحياة من نظم وإدارة واقتصاد وثقافة وعلوم وفنون[35].

ومع ذلك يلاحظ بعض الباحثين أنه على الرغم من أن حكام الدول الإسلامية التي

---

[32] كرم الدين كمال الصاوي ، ديوان الكانم والبرنو نموذج مبكر للعروبة والإسلام في تشاد في ندوة اللغة العربية في تشاد الواقع والمستقبل ط (1) جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 2003م ، ص 382

[33] السر سيدأحمد العراقي، ملامح في تاريخ إفريقيا ، منشورات الخرطوم عاصمة للثقافة ، 2005م ، ص . ص 5–1 53

[34] عبدالعزيز بن راشد العبيدي ، إنتشار الإسلام في إقليم الكانم : دراسة تاريخية ، دراسات إفريقية ، ع (46) ديسمبر 2011م ، ص 51

[35] محمد زين نور محمد ، مملكة كانم – برنو ، زيارة إلى قوقل ، نوفمبر 2017م

قامت في كل من دارفور ووداي وكانم وبرنو كانوا ينتسبون إلى أصول عربية فإن العناصر التي اعتمدوا عليها وجعلوها قوام ملكهم كانت عناصر غير عربية بالرغم من الوجود الكثيف للقبائل العربية على إمتداد السودان الأوسط فإن نفوذهم وتأثيرهم على مراكز السلطة السياسية والثقافية في السلطنات الثلاث كان محدودا وذلك للنمط البدوي فهم في الشمال رعاة إبل وفي الوسط والجنوب رعاة أبقار[36].

ونخلص إلى القول بأن إقليم الكانم قد تحول إلى منطقة إسلامية وقامت فيه حضارة إسلامية وارتبط بأقاليم العالم الإسلامي ودولة بعلاقات سياسية وحضارية وكان له مساهماته في الحضارة الإسلامية[37].

---

[36] مصطفي أحمد أحمد على ، اللهجات العربية في الحزام السوداني الأوس والشرقي ، دراسات إفريقية، ع (27) يونيو 2002م ، ص 170 .

[37] العبيدي ، م . س . ص 55